



فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ  
تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ

سورة الروم  
آية ١٨، ١٩



UND PREIS SEI ALLAH,

SO ES EUCH ABEND UND MORGEN IST,

UND IHM SEI DAS LOB

IN DEN HIMMELN UND AUF ERDEN,

UND AM ABEND UND ZUR MITTAGSZEIT.

العدد السابع عشر ١٩٧١ العام التاسع

يصدرها: البرت تايلاندي و اناماري شيمل



التصوير

- ٤ الفن الحديث وفنون الخط، بقلم باول پارثيس · Paul Parthes, Kalligraphie und moderne Kunst
- ٢٣ الفنان الذي مات مفتوح العينين، فولس · Wols (Alfred Otto Wolfgang Schulze)
- ٣٠ بعض الآثار في باكستان: رسوم جدران الضرائح بالقرب من «جوهي»، بقلم م. ج. كوليتسني  
M. G. Konieczny: Die Wandmalereien der Mausoleen von Johi, West-Pakistan
- ٣٦ ميرزا قليچ بيك، الأديب السندى وقصته التراثية «زينت»، بقلم اناماري شيمل  
Annemarie Schimmel, Mirza Qalich Beg, der Literat aus Sind und sein Frauenbildungsroman „Zinat“
- ٤٨ أحمد أمين وأتباع الأستاذ الإمام محمد عبده، بقلم دظلف خالد  
Detlev Khalid, Ahmad Amin und die Nachfolger Muhammad 'Abduhs
- ٢٨ ورقة من تاريخ الإستشراق في ألمانيا: يوليوس روسكا، البحثة الكبير في العلوم الطبيعية العربية، بقلم  
محمد يحيى الهاشمي  
Mohammad Yahya Haschmi, Julius Ruska, der Erforscher der arabischen Naturwissenschaften

يتم النشر ودار النشر شكر لكل من ساهم بموته في إعداد هذا العدد  
وبدون مساعدتهم كان من المحتمل أن تحصل هذه المجلة على شكلها الحالي الجليل  
فلقد التزم الكرام أن يدوموا في إرسال مآثرهم وآرائهم القيمة ونحن لهم من الشاكرين  
شكر وتقدير:  
تشكر هيئة تحرير مجلة «فكر» السيد شامين على جميل عطفه العربية التي زود بها هذه المجلة والتي لا زال يقدمها لها .. وهي تشكر له  
مزيداً من الإبداع في أنحاء القراء بفنون الخط العربي ..

ترجمات: Magda Gohar, Bonn; Dr. Muhammad Ali Hachicho, Köln; Dr. Arnold Hottinger, Madrid;  
Magdi Youssef, Bonn.

# FIKRUN WA FANN

Nr. 17

1971

9. Jahr

Herausgeber:  
Albert Theile und Annemarie Schimmel

## الفهرست

- ٧٢ تاريخ: معرض الكتابة العربية في ألف عام، بقلم محمد إبراهيم  
Mohammad Ibrahim: Tausend Jahre arabische Schriftkunst (Ausstellung im Goethe-Institut  
Alexandrien)
- ٨١ الفن المصري الحديث والنقد الألماني  
Moderne ägyptische Kunst in Essen
- ٨٦ طلائع الكتب

## صورنا الغالين:

وعاء خزفي ساماني مزين بكتابة كوفية. مصدره سمرقند (افراسياب)، القرن ٩-١٠م.  
Metropolitan Museum of Art, New York.  
طبق من الخزف بثلاثة أرجل عليه موتيفات زرقاء. أرضيتها زاهية. أصله من سوسة بإيران، القرن  
التاسع. وهو معروف في متحف إيران باستان بتهران.

## ماخوذ عن كتاب:

Der Iran und seine Kunstschatze. Meder und Perser. Die Schätze der Magier. Die iranische  
Renaissance. Text von M. Mazaheri. Éditions d'Art Albert Skira, Genf, 1970.

ونشكر دار نشر سكير! لاعارتها لنا كليشاهات هذه اللوحات.

دار النشر: Übersee-Verlag, D 2 Hamburg 11, Mönkedamm 5, Bundesrepublik Deutschland

تظهر مجلة "فكر وفن" العربية مؤتمراتين في السنة - الاشتراك: ١٥ مارك ألماني. - النسخة الواحدة: ٨,٥٠ مارك ألماني؛ بمن الاشتراك تخفيض للمطالعة:  
٧,٥٠ مارك ألماني. - تتم طلبات الاشتراك إلى دار النشر

تصنع الكليشاهات في: Bauersche Klischeeanstalt und Chemigraphische Kunstanstalt Friedrich Heitges, Hamburg

الطباعة: © 1971 by Albert Theile بطرق J.J. Augustin, Buchdruckerei, Glückstadt

إدارة التحرير: Adresse der Redaktion: Albert Theile, CH 6314 Unterägeri, Zug, Switzerland

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الفن الحريش وفنون الخط

بقلم باول بارتيس

إذن فقد كانت بداية فنون الخط بحرية. ولا زال يعيش فيها حتى الآن كثير من ذلك السحر، من ذلك الإبداع الملمز. أدوات هذا الفن: ورق وفرشاة — فرشاة من شعرة واحدة حتى خصلة سمكة من الشعر؛ يضاف إليها واسطة الحبر الصيني — وهو مزيج من سناج الصنوبر والغراء المعد على حجر في الماء — كل هذا صعد من شأن غرابة هذه الكتابة.

فقدت الكتابة الصينية طابع الصورة الخالصة منذ أن سلط عليها ضوء التاريخ المسجل. وعليه فليس صحيحاً أن نتحدث عن الكتابة كصورة محضة، مثلاً نخطئ عندما نعتبرها مجرد رمز لا أكثر. فالكتابة الصينية صورة ورمز.

إن حكمة جوتيه (في «المأثورات والتأملات Maximen und Reflexionen») التي تقول أن الصورة والكلمة في تفاعل دائم متبادل، لا تكف أحدهما بحثاً عن الأخرى، لتصلق كل الصديق على فعل الفكر عند أهل الصين. ذلك أن الكتابة الصينية تثبت مصور للكلمة، للفكرة. من ذلك الذي يريد أن ينكر أن فن الخط لا زال شيع حتى يومنا هذا إلى جانب الآثار الجمالية تدفقاً بحراً كمنهه الأول؟ ألا يستطيع فن الخط أن يعبر عن نفس ما تعبر عنه القنوين الأخرى، كالنوسيقى مثلاً، وهي التي

• نسبة إلى المذهب الطبيعي Naturalismus

يقال عن فن الخط أنه أول أدلة الفن التجريدي. وإن ذلك ليصدق على فن الخط في الشرق الأقصى. فالكتابة الصينية، كأساس لهذا الفن، تعد نتيجة لعملية ذهنية تجريدية. الصورة القريبة من الطبيعة، أو إن شئت فقل الطبيعية<sup>٥</sup>، قد صارت رمزا بعد أن بسطت إلى إشارات كتابية، أي جردت.

إلا أن هذا العمل الفكري الرائع كان أكثر من ذلك — الأمر الذي نستمد منه محكاً للحكم على كافة فنون الخط: إن علامات الكتابة في الشرق الأقصى لا تحاول أن تعني شيئاً فحسب، وإنما تريد هي الأخرى أن تكون شيئاً. إن هذا هو هدفها وغايتها ومعناها الدفين. فهذه العلامات لا تؤدي مجرد وظيفة المقابل في اللغة، وإنما هي أعمال فنية ليس في شرق آسيا وحده، وإنما كذلك في العالم الإسلامي، وفي الغرب.

إلا أن العلامات المدونة ليست مجرد ظاهرة جمالية. فأتقدم الحروف الصينية التي ترجع إلى عصر «ين» Yin (حوالي ١٧٦٦-١١٢٢ ق.م.) كانت ملونة ومحفورة بقلم معدني في عظام الحيوانات، ومصفحات السلحفاة، وسطوح الغاب. وكانت هذه تعرض لنار مكشوفة حتى تظهر فيها شقوق وطفرات، وتحتوي العلامات كأنها تتكلم بالبحي، وتصير ممكنة التفسير.



كلمة «واسط» حل جدار الجامع القديم (اسكى جامع) بمدينة إدنيه، تركيا. تصوير: A' Foto Stuyousu, Istanbul

► بسملة: بقلم الخطاط التركي احمد قراصبازى (وفات ١٥٥٦)

عن «وظيفة الكونترابونت في الموسيقى الجديدة»  
Die Funktion des Kontrapunktes in der neuen  
Musik (1958) لما يدعو سر التآليف الموسيقى الكونترابونتي  
واصفًا إياه بأنه محاولة بلوغ الموضوعية عن طريق الذاتية.  
نفس الشيء يحدث في فن الخط. فالعنصر الجرافي، الذي  
هو نفس الكتابة في الخط، يستوعب في قانون  
موضوعي. ورغم هذا لا يضع الطابع الشخصي، بحيث  
تصبح الفروق الدقيقة بين خطوط وخطاط من دواعي  
الامتاع أحيانًا قابِلًا لها في أي من أنحاء العالم.

ظل يقارن بها منذ قديم الزمان، بل من قبل عصر «كونج  
فونسي» Kung fu-tse؛ فالخطاط «يعزف» نصًا أو «لحظة»  
حتى نهايتها. ومن ثم فهذا الفن يستطيع أن يعبر عن أرفع  
وأعمق ما يهز قلب الإنسان من فرح أو حزن، أو بأس  
أو ضعف، أو ما يجوب الطبيعة بين الأرض والسماء  
من أعلى الأصوات حتى أخفها.  
إنه بحر الحياة المباشرة، ذاك السحر الذي يسعدنا به  
الخطاط.

يتعرض «تودور آدورنو» Theodor W. Adorno في مقالة له



九思

علامة وتشير سو Chiu Ssu القيسر وسو تسونج Su tsung من أسرة مينج Ming. لوحة محفظة في. National Palace Museum, Taipei, Taiwan.

و«انحرافا عن أصول الخط» بشرط أن يكمل «الصحيح» ويتحد معه في إطار متكامل.

لم يكن ذلك مدعاة للعجب في عصر ما أشبهه بعضرنا، انقلبت فيه مفاهيم علم الفلك رأسا على عقب، وتغيرت صورة العالم في أذهان الناس بحيث صارت الضرورة إلى جانب المصادفة في قدر واحد — أو بتعبير فن الخط: «الخط الرئيسي» مع «الخط الفرعي» في وحدة جامعة ..

وكما تصيغ الموسيقى العصرية أنغامها، هكذا يصنع هذا الفن «مخطوطه» أنغاماً متداخلة متعاقبة تثير فينا الإعجاب والخيال. (انظر الصورة ص ٧).

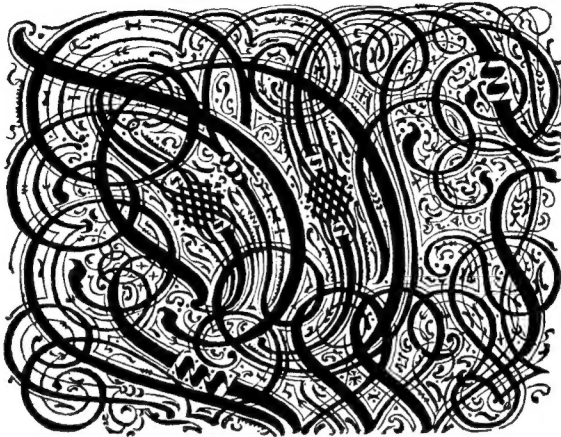
لقد كشف الجدال الذي دار آنذاك في نورنبرج عن خطأ أساسي: هو اعتبار فن الخط فن الكتابة الجميلة. إن مجال خطوط الكتابة شيء مرغوب ولا شك، ولكنه لا يعدو المرحلة الأولى، كشأن الرسام الذي لا بد وأن يتقن قواعد التصوير بالفحم أو الباستيل كأساس لمهنته ..

إن الطابع الكلي لفن الخط يحرم على الخطاط أن يتجمد في المرحلة الأولى من فنه الذي هو في نهاية الأمر ككل الفنون شهادة متنافزة. لقد انضمت الطبيعة المتنافزة لتلك المضلة التي نوقشت في نورنبرج عندما أشار المتصوف

وفي عصر الباروك (القرنان السابع والثامن عشر)، العصر الوحيد الذي ازدهرت فيه النزعة الفردية لدى الخطاطين الألمان، كان هؤلاء على علم بما سبق أن تعرضنا له من عوامل أساسية في فن الخط. (ولا يسعنا هنا سوى أن نشير بمجرد الإشارة إلى روعة رسم الحروف الأولى في فن أعداد الكتب بأدوية القرون الوسطى الأوربية — (راجع فكر وفن ٣).

لقد أثار الجدل المفتوح الذي قام حول عام ١٦٠٠ بين ثلاثة من مشاهير الخطاطين في مدينة «نورنبرج»، اهتمام المستمعين من صفوف الجمهور، حين راح يدافع عن الإضافات التجريدية، أي غير الوظيفية، باعتبارها قيمة ذاتية لفن الخط. وقد كان «برشل» C.F. Brechtel أكثر الخطاطين ثباتاً على رأيه. فهو لم يحاول بما عرضه من محفورات خطية في النحاس الأحمر، أن يفرض رأيه على أحد. غير أنه رفض في نفس الوقت أن يتنازل عن حقه في أن يقرر ما يراه بنفسه.

هكذا فجرت حدود المصطلح التقليدي، وأعيد تشكيل «الخط الرئيسي» Hauptstrich و«المخطوط الفرعية» Nebenstrich، كما اعترف بما كان يعد من قبل «خطاً»



الحرف الأول W من بين الحروف المحبوبة المرسومة «على القلح الجديده». حفر في الخشب مكبر. أخذ من :  
'Das ander Teil der Schreibkunst', Nürnberg 1601 (Anton Neudörffer)

الفلاح ولو كان شعر ريشتك من أرنب من «شونينشان». لهذا عليك قبل أن تبدأ أن تجلس في هدوء تام، حتى يتبأ السلام لنفسك، وتتخلص من كل المشغلات. عليك ألا تتكلم، وألا تتنفس إلا في حدود الضرورة. ولتثري، ولتشر كما لو كنت في حضرة شخصية وقورة. عندئذ توافيك القدرة.

وعلى أشكال كتابتك أن تعبر عن الوقوف والقعود، والطيران والجيشان، والحب والتهوى. ولابد من أن تحوى البهجة والاكتئاب. وعلى آثار الابدان فوق أوراق الشجر، والمقصات والأسياخ الحادة، والأقواس الصلدة، والأسمم الصلبة، والماء والتار، والضباب والسحاب، والشمس والقمر — على كل هذا أن يفصح عن ذاته في غمطوط الكتابة. عندئذ يمكن أن نسمة خط فني.

إن الخط لابد أن يتنفس. هذه الحكمة القديمة لا زالت نبراسا لخطاطينا اليوم (انظر النموذج المنشور ص ١٠، ١١، ١٢). إن الأسرار السبعة الشهيرة (تشى مياو Ch'i Miao)

الألماني «ياكوب بومه» Jakob Böhme — فيها بعد — إلى «لا» التي هي عنده «ردة» نعم، أى للحقيقة. وقد دعيت خطوط «برشل» الجانانية في عصر متأخر «خطوطا تناقضية». ألا يذكرنا ذلك بنظرية «لايتنس» Leibniz حول امكان تبديل «الفاعل المؤثر» Wirkenden بالمثائر Leidenden وفي أحد الميادين العالمية الثلاثة لفن الخط، في الاسلام، يلعب الوازع الديني دورا أساسيا في عمل الخطاط المسلم (راجع Annemarie Schimmel, Islamic Calligraphy Leiden, 1970). أما في الشرق الأقصى فما يدفع الفنان إلى ريشته هو بالأحرى ضبط النفس، وتأكيد الذات والافصاح عنها. فقبل أن يضع الفنان طاقته في خط ريشته عليه أن يجمع شمل نفسه. وهنا يشير عليه «تاي يونج» T'ai Yung : «إذا ما أردت أن تحط فتحر نفسك أولا من أفكارك تماما، ولتدع نفسك على ميبتها، وطبيعتك على حريتها. ثم فلتبدأ. أما إذا كنت تشعر بأذى غصة فلن يوافيك

التي تمنح من يقف عليها ويقلعها جديلاً لا يغرب، لا زالت تشغل معاصرينا من أحفاد عظام الخطاطين اليابانيين. إن المثل الأعلى لفن الشوشو Sho، فن الخط الياباني، ليحمل إليهم (إلى جميع فئات الخط) مضمونا ملزما، وفرضا لا يجوز الحاد عنه.

لما كان سر الشوشو Sho يكن في الوثني مياو، فلا بأس من سرد بعض التفاصيل عنه. مثلا: على الخط الأفقي (heng) منحن أن يبدو كحائط من السحاب على بعد ألف متر، وفجأة ينثني، والفتلة كجملود صخر يهبط بكل عزوه من عل. والخط الرأسى: «كعريشة عنب، عتيقة عتيقة، عمرها ألف عام، ولا زالت مشرفة في عنفوان نضارتها».

الدينامية إذن شيء أساسي في فن الخط، وليست ستاتيكية الخطوط الاعلارية. فهنا يدور الحديث حول «لحم» خط الريشة و«عظامه» إلى جانب تصويره وتشكيله. ومرة أخرى تصبح عدم المضاهاة، كما تطل علينا من فنون الشرق الأقصى، مبدأ رائدا منطلقا لفن الخط. أن نتطلع خطوط الكتابة من حيث هي «أشكال مجازية» مرجعه المضمون الذي تتطوى عليه هذه الخطوط. ولا يجوز لنا أن ننسى هذا. فالخط انطباعي قبل أن يكون تعبيرى، وهاتين موسيقى قبل أن يكون نصي.

إن فن الخط هو أولا وأخيرا فن الخطوط. ومع أن الزمن يلعب فيه دورا له أهمية قصوى يتمثل في إيقاع ضغط الريشة، وانسيابها، وسرعتها، ووجهتها، إلا أن فن الخط فن مكاني بنفس القدر. إن شدة الإيقاع تخف بسبب الترتب الذي تصجره المساحة، المساحة فيما بين خطوط الريشة المتفرقة، وخطوط الكتابة ككل.

ينشأ الخط، الذي يحكم الانطباع، في نفس واحد، وهو لا ينقض، ولا يجوز أن يكون جامدا، بل يجب أن يكون منغما، ليس بعيدا عن التنوعات الموسيقية. هكذا يطرد الفراغ، ويتروح بأشكال تتجاوب مع بعضها، وتتكافئ في عقد إيقاعية. وثمة وهي جليدة ينشأ، ودلالات جليدة، ويصعد السلم إلى آفاق عالية من الموضوعية التي سبق الإشارة إليها.

إلى جانب تجريد الأشكال يؤدي اللون دوره: أسود فقط، يترامس مع بياض الورقة، مع اللاتينية. إن الصفحة ليست مجرد خلفية، وإنما مساحة لا نهائية. الصفحة ليست محض وظيفة في خدمة المعرض.

بينما فن الخط في الصين جسور جاف، سام بعيد، إذ هو في اليابان مغمم بالمشاعر ورقة الاحساس. ولكن بجاله

في كل الحالات يقم على توازن المتناقضات في رفعة وإعلاء، وعلى تناسق وهارمونية الأجزاء، واللعب المتبادل الخفى الدائم بين الأسود والأبيض في المكان اللامتناهي الذي تمثله الحقيقة.

إن إمكان هذا الشعور بالامتناهي في حياتنا البشرية المتناهية قد أغرق الخطاطين في بحور من التأملات، حتى لأدى بهم ذلك إلى صرامة تقويم الذات عند أصحاب مذهب «تسين» Zen، «البوذي، وإلى رؤية الذات الالهية عند كبار متصوفي الاسلام — وعن من التماذج المثلثة لذلك أن تراعت الذات الالهية لابن عربي في رمز حرف «هـ» مقترنا بهو في آن واحد.

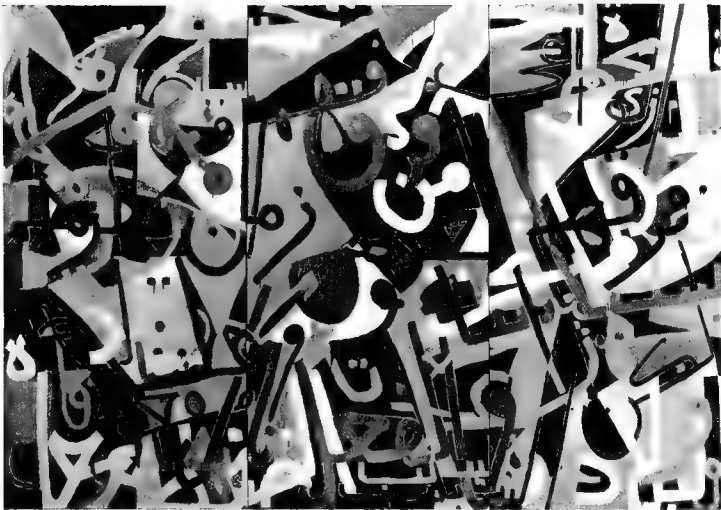
أما في الغرب فاستغرق الفنان استغراقا لامتناهيا في تنفيذ عمله يؤدي إلى تعويده النظام.

إن «بولوك» Pollock لم يتعلم في أحد أدوية طائفة «تسين» Zen البوذية مجرد فن الرسم الصيني. فدون اكتساب أقصى قدر من التركيز لا يرجى نفع، في رأى أهل الشرق الأقصى، من قدرة حربية مهما بهرتنا بحار أصغر تفاصيل الأشكال. إنما لابد من السيطرة على الحال والحركة بنفس المقدار.

رغم هذا الطابع الروحاني الفكري لفن الخط لا يجوز إغفال جانبه المادى في الشرق الأقصى. فلا زال التجار اليابانيون فخورين حتى يومنا هذا باستخدام عماس الخط الياباني في الدعاية لسلعهم. ولا زالت تجذب المطاعم اليابانية عملاءها بلوحات من الخط البديع تلتهم أنفسهم حتى تلهم شهيتهم.

منذ أن أدت التكنولوجيا إلى سرعة فاعلية وسائل الاعلام أصبح فن الخط فنا عالميا. وقد أسهم في هذا التطور لفيت من فنانى اليابان وأوروبا وأمريكا. كما يتزايد نصيب العلم الاسلامى من الشرق الأدنى حتى السودان والمغرب الأقصى في دفع صناعة الخط نحو ذاك الصعيد العالمى.

صارت لفن الخط — الكاليجرافى Calligraphy — أمماء جليدة عدة تعرف بفتى متنوعاته. وهي قد أطاحت بالمفهوم الكلاسيكى التقليدى للحرير الصينى كواسطة رئيسية في صناعة الخط. وما عادت تقتصر هذه الصناعة على تحسين الخط بالخطى الضيق المباشر بمقدار ما صار يؤخذ الحرف كقيمة جمالية مجردة. لهذا نشأت تسميات حديثة في ميدان «الكاليجرافى» كالايكوجرام Pictogramm (الكتابة التصويرية) والايديوجرام Ideogram بمعناه القديم الذى يدل على ترميز الحروف لمفاهيم معينة.



يوسف سيده، خط حرب؛ زيت على قماش، بدون تاريخ.

وقصائد — موضوعات — poèmes-objets ، وكلمات  
حرية parole in libertà ، وقصائد للرؤية visuelle  
Gedichte وادبيجات آلات كتابة-Schreibma-  
schinen — Ideogramme . بل حتى رسوم الأطفال ينظر  
إليها من وجهة نظر فنون الخط نظرة اهتمام وتأويل يجعلها  
تدخل ضمن إطارها. لكننا لا نوافق على ذلك رغم كل  
ما تضمه رسوم الأطفال بين أيدينا من مفاتيح تكشف  
عن شخصية هؤلاء الصغار. ذلك أن صنعة الخط الأصيلة  
تبدأ من اللاوعي متجهة نحو الوعي، وليس العكس.  
إن الشرط الأساسي لقدرة فنان الخط على الإنتاج هو  
درجة عالية من الشفافية والصفاء الروحي الذي يصبح  
عند أندريه ماسون André Masson ميذا ولدى فؤلس  
Wols «نار الخطوط الفنية».

أحيانا ما تلعب الكتابة دورا تكوينيا محضا في معزوفة  
اللوحة الفنية. وهي لا تكون سلسلة دينامية بل ثقلية الوقع  
جامدة كما تكون الحروف في حالاتها الاستاتيكية المنعزلة.  
يلاحظ هذا الاستخدام خاصة في لوحات كبار التكعيبيين ،  
أمثال: بيكاسو Picasso وبراك Bracque، دين أوتو  
على جبال اللوحة من حيث هي وحدة كلية. فالتكعيبيون  
راحو بربطون بين الفكر وحقيقة اللوحة. وهم لم يصوروا  
ما رأوه وحسب، وإنما كذلك ما وقفوا عليه واكتشفوه.  
نلمس غنى متنوعة فنون الخط بمعناها الواسع المريض  
في تعبيرات مثل «الخطوط النصية» Skripturale Graphik  
التي من بينها لوحات «هانس ريشتر» Hans Richter الدائرية  
Rollbilder (انظر ص ١٧)، ونصوص للرؤية Sehtexte  
(راجع صفحة الغلاف الثاني من فكر وفن عدد ٣)،



شيربورمويتا، الموت، عام ١٩٦١

إن الرسام الخطاط لا يأتي بالأشعار دائماً، ولطالما شغل فنانون الخط بظاهرة ارتباط الحروف الهجائية بالكلمة مثلاً حيثهم عيشة الحروف عند فصلها عن اللغة.

وهناك من المتابعات والتسلسلات الخطية وآثار الكتابة غير المكتملة ما يذكر في خطوطه الخارجية بالحروف الهجائية كلوحة «جان ديجوتكس» Jean Degottex

«زرقه فيها وراء حروف الكتابة» Métagraphie bleue ، ولوحات «ليون فيراري» Léon Ferrari «وموسيقى»

Musica ، و«أزرى ميشو» Henri Michaux الذى صور حروفاً هجائية تحت تأثير مخدر المسكالكين، وبارل

كلية Paul Klee «صورة كتابة نباتية» Pflanzen-Schrift- Geheimschrift- Bild (١٩٣٢) ، ولوحة كتابة سرية

Bild (١٩٣٤) ، ورائعة ماكس ارنست Max Ernst : «حروف هجائية سرية ماكسيمليانية» التى نثر فيها الرسام

بعض النصوص الألمانية ذات الطابع السامى كقطع من قصيدة «ارنست فيلهلم ليبيرشت تمبل» Ernst

Wilhelm Leberecht Tempel يقول فيها: «فلتندق جميع الأجرام الحق والقوة ينزعان بالقوة اتدق معلقة:

لكل خبزه والموت للطاعة» (١٨٤٩).

وقد سعى المستقبلين، كما هو الحال فى لوحة «فيليبو مارينيتي» Filippo Marinetti : «الكلمات بحرية

مستقبلية» Les mots en liberté futuristes (١٩١٩)،

بينما ظلت كل فنون الكتابة تستمد معناها من الكلمة حتى الآن، ولو كانت هذه الكلمة اسم الله، تحررت صنعة الخط المعاصرة من الخط والمفهوم على صعيد عالٍ، وبذا صارت هذه الصنعة محايدة فى الشكل لا من حيث القيمة. ولا لأصغتنا حتى فناني الخط المصريين وهم الذين تنضج أعمالهم فى العالم أجمع بمجدية بالغة.

بهذه الخطورة المؤدية إلى موقف جديد كل الجدة تنهى عملية بدأت فى مصر القديمة واستمرت فى بعض الحضارات الكبرى التى كانت لها كتابة. ولقد عرفت مصر القديمة إلى جانب الهيروغليفية نوعاً من الكتابة كان يستخدم فى شئون الحياة اليومية، وبذلك كان يفر على الهيروغليفية أوسطقراطياً ميسراً لها انفصالها عن الحياة اليومية.

وقد أحقق تطور مشابه فى اليابان نظراً لاستخدام علامات الكتابة الصينية استخداماً صوتياً بعد تجريدتها من دلالتها اللغوية الأصلية، فضلاً عن أن فى خلطها بمقاطع الحروف اليابانية الشديدة التباين خسارة جمالية. وما أن غزى فنانون الخط الحديث مبادئ جديدة حتى قضوا على نظام الطبقات الذى كان سائداً فى اللغات القديمة..

أكدت آخر التطورات العالمية فى فن الخط تلك العلاقة الوثيقة التى ظلت قائمة على مر العصور بين الخطاط والرسام. بل وعادت تتبدى فوق هذا قرابة الخطاط بالشاعر.





تايرياماساكي، العين الزجاجية، عام ١٩٦١

انظر إلى قصيدته التي يقول فيها:

stein staub  
stein  
staub

حجارة تراب  
تراب  
واحدة

mund  
sturm

فم  
عاصفة

rollen  
streuen

يتلحرج  
يثر

endlich  
endlos

نهائي  
لا نهائي

zu sich  
von sich

لنفسه  
من نفسه

ولقد أدت حركة الشعر الملموس إلى حل القصيدة بمفهومها التقليدي حلا تاما، وهو ما أدى إلى تجارب طوبوغرافية شبيهة بتجارب المستقبليين والدادائيين الذين قاموا بها على سبيل السخرية في بعض الأحيان ..  
يتميز هذا النوع من الشعر برباط الأفكار، بكلمة تستدعي غيرها من الكلمات مثل «حجارة» و«تراب»، مجرد أن لها

إلى صنع لوحة صوتية من صورة الكتابة، وذلك باعطاء ايقاع مختلف لكل من الحروف التي تسيطر على اللوحة من خلال أحجامها المختلفة. وتحاكي صورة الكتابة هنا حركة الكلام التي تتراوح فيها بين الصراخ (حروف كبيرة جدا) والمهمس (حروف من الصغر بحيث يتعسر قراءتها).  
وإنه لأثر فني حركي ينسب إلى واقعنا التكنولوجي المعاصر حق الانتباه مغبرا الأطر التقليدية لفنون الخط.

لم تفرد الكلمة بالهام صنعة الخط، بل حدث العكس أيضا. إذ ألم فن الخط صنعة القصيد كما هو الحال في «الشعر الملموس» Konkrete Poesie الذي يعد من أشهر مثليه في الربوع الناطقة بالألمانية «أوجين جومرينجر» Eugen Gomringer و«جرهارد روم» Gerhard Rühm و«فريدريش آخلايتنر» Friedrich Achleitner وقد لاقت هذه الحركة الأدبية التي أصبحت تدعى minimal art صدى واسعا في أمريكا وأوروبا، وخاصة في البرازيل حيث اشتهرت جماعة Noigandres بتطبيق المتضاهيات المنتسبة على أعمالها الأدبية. ومن أعضاء هذه الجماعة «هارالدو دي كامبوس» Augusto و Haraldo de Campos و«ديسيو بيناتاري» Décio Pignatari و«رونالدو آزيريدو» Ronaldo Azeredo و«روزيه ليتو جرونيفالد» José Lino Grunewald أما الشعر الملموس الذي ينادى به «جومرينجر» Gomringer فيحاول الرجوع بالاستعانة إلى عناصرها الأصلية.



برلينيس ييسيه، Hf. 5, 8, 62 pu، عام ١٩٦٢.

Kunstsammlungen Nordrhein-Westfalen, Düsseldorf, Die Kunstsammlungen Nordrhein-Westfalen in Düsseldorf. Verlag M. DuMont Schauberg, Köln 1970.

عن كتاب: Werner Schmalenbach, Die Kunstsammlungen Nordrhein-Westfalen in Düsseldorf. Verlag M. DuMont Schauberg, Köln 1970. نشكر المتحف ودار النشر لتصرّعهما لنا بنشر هذه الصورة.

تساعد صنعة الخط على بثع الحساسية في علامات الكتابة الى تبليغ في الشرق الأقصى ستين ألفا، ومع ذلك لا يستخدم منها سوى العشر. أما الباقي فيظل رهن التناول ..

يتروك تفسير مضمون علامات الكتابة الصينية للقارئ بما له من قدرة على استيعاب التجارب. فالأمر يتوقف عليه وحده فإذا كان يرى في علامة الجبل (山) سفحا يمكن تسلفه بسرعة، أو خط القمة الملكي الخاص بـ«فوييزان»

معنى ثابت في تصوراتنا. إلا أن ترابط الأفكار لا يبلغ في الغرب ما للرمز من منزلة رفيعة تلمسه في الشعر الفارسي وما تأثر به، وعلة ذلك أن الغرب لم يرتبط بملك التيار الشرق أبدا إلا لفترة محدودة، وباتجاه لا يتخلل عن الحياة الدنيا كما هو الحال لدى الرمزيين الفرنسيين مثلا. ليس «المنبه اللفظي» هو المهم إذن، وإنما ما يثيره من تصورات. فن ذلك الذي لم يتبين بنفسه أن الرمز يبعث عوالم من الصور التسمائية والمزرية على حد سواء؟



Fuji-san ذى الرفعة الالهية. فتحن الذين مخاطب دوما في أعين أعماقا، ولا يختلف الحال هنا كثيرا عنه بالنسبة لوسائط الفنون الكبرى المغايرة. أما في الشرق الأقصى فصناعة الخط تقدم سائر الفنون جميعا.

ليس المهم أن نجيب على سؤال يستفسر عن كيفية جمع شاعر وخطاط صيني أو ياباني أو كوري بين تصوير خطي رائع وقصيدة لا تقل عنه روعة. إنما المهم أن تبلغ أفكار هذا الفنان قلوبنا، إذ أن الأفكار التي لا تخاطب القلوب تعمل الأخطار بين طياتها.

تسير التحف الخطية التي أبدعها فنانون معاصرون من أمثال سوفو أوكابه Sofo Okabe ، وطاقو يامازاكي Taiko Yamazaki ، وشيرو موريتا Shiryu Morita — أنظر في هذا العدد بعض صور لوحاتهم — على نفس التبع الذي يربط الفنان بالخيال بأخيه الإنسان. إنها طاقات هؤلاء الكبار في دفعها المثبتة الملهمة تحاول أن ترفع من طاقنا الحيرية ومقدار حساسيتنا. ولقد أغلظت من كمال التقص مبدأ وبنزاسا لقيمهم الجالية. كما رأوا في عملية الكتابة سلوكا فنيا دينيا يؤكد فردية الشخص حسب تصور مذهب تسين Zen البوذي القديم، وتعبيرا تلقائيا عن ذاته تسجله أكار الخبر الصيني (يقابله الخبر الياباني بوكوزيكى bokuseki) في حيوية يضبطها انسياب ابتاعي.

يعلق موريتا Morita على لوحته التي عنوانها «الموت» (انظر ص ١٠) بقوله: «لنى أدون علامة الكتابة التي تشير إلى الموت وتنتطق «شى» Shi. إن هذه الحياة الدنيا الملية بالتناقضات والحداد: بالحياة والموت، بالملم والكون. ولن تكون لنا حرية ما دمن مغلولين بالحدود والتناقضات. كما يستحيل أن نحيا على وجه كامل. وهو ما يتضح لنا من أن هنالك تناقض بيني وبين كلمة الموت كما أكتبها الآن. وإن كل ما أسعى إليه هو التغلب على الحدود التي تفرضها العلامة الخطية لهذه الكلمة، وتطويرى لأناى (شخصيتى) بصورة حرة كاملة.

في الشرق عبارة تدعى «اختبار الموت الكبير». لكن الموت لا يعنى هنا فناء الجسد. إنما حين يموت المرء في أعماق الوعي النسي يصبح في إمكانه أن يعيش في العالم المطلق اللامتغير. لذا فاختبار الموت الكبير يعنى كسب حياة كبيرة. وحين أدون علامة للكتابة المشرقة إلى الموت لا ينفضى سوى معايشة تجربة الموت الكبير. فإذا ما نسى لي ذلك لن تصبح لفظة الموت المبدئية موضوعا خارجا عن إطار حياتى، بل أن حياتى ستستوعبها: عندئذ يصبح الموت أنا، وأنا الموت. وعندئذ أعيش الحياة كما أعيش

الموت على حد سواء، حرا بلا قيود ولا حدود. ولا يمكن أن يقوم هنا تناقض بين ما هو أنا وما هو الموت. عندما أحرك ستكون هي كلمة الموت المبدئية التي تتحرك. إلى لا أعط كلمة الموت موضوع.

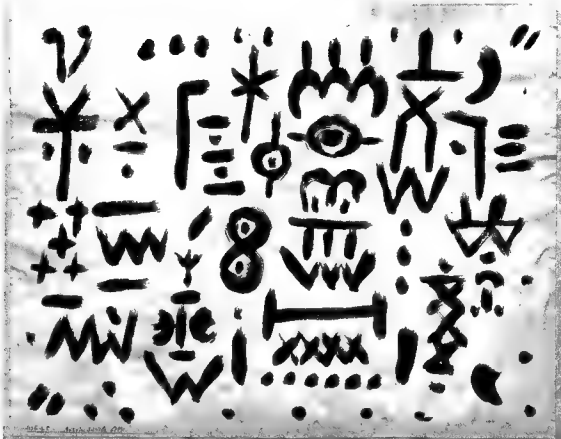
من يستطيع بعد هذه الكلمات أن يتشكك فيما لفن الخط المعاصر من أجواء بحرية؟

عندما نتطلع إلى عناوين لوحات خطاطى الشرق الأقصى نتعرف فيها على ما يعكس تأملاتهم كما هو الحال مثلا في تعليق لوحة الخطاط «يوشوشى نيشيكارا» Yushoshi Nishikawa: «الروح الذى بلغ الأبعاد والأعماق»، أو «أكبر الأماكن ليس له حدود»، هكذا تترجم مفاهيم العلوم الطبيعية إلى لغة الخط.

وفى الغرب كان بول كلي Klee يعطى لوحاته — أحيانا عن وعى هادف— عناوين كالعبارات السحرية تفجر طاقة، مثل «معادلة الفنان». غير أنه تسود الغرب فيها عدا ذلك علاقات عقلانية محضة كتلك التي نلمسها لدى الفنان «بسيه» Bissier الذى وضع تحت لوحاته عناوين محايدة تماما، مزودة بتاريخ نشره اللوحة. ويقول الفنان في ذلك: «حركة قادمة من عدم هذا التاريخ تحضى لتختفى مرة أخرى في الفراغ...». ولنى لدى «فريتس فينتر» Fritz Winter «عنوانا تحت تعاقد شريفة»، ولدى «برنار روكيشو» Bernard Requichot تسمية لا تقل عن ذلك عجبا: «خطاب إهانة» Lettre d'insulte. ويدعو هاينس تروكس Heinz Trökes لوحته الخطية «تضخم سكاني»، بينما يطلق برنارد شولسه Bernhard Schultze على إحدى لوحاته اسم: «كتابة منظر طبيعي» Schriftlandschaftlich. ألا تستحق هذه العبارة إعجاب أحد من فناني خط الـ Sho الياباني؟

من مقارنة عناوين هذه اللوحات في الشرق والغرب ربما أمكن الوقوف على ما بين الشوب من فروق. إلا أن الفوارق تزل وتضمحل بالتدرج في الخط الذى تسوده البصغة العالمية ..

يحف ارتباط الكلمات والنصوص باللغة الصوتية عن طريق الاتصال بالمثل الأعلى السائد في الشرق الأقصى، وهو الذى تكون الكلمة فيه هي الصورة. وفى الغرب يحاكي بعض الفنانين علامات الكتابة الشرقية ولوم يعرفوا معناها، فهي تصبح عندهم صيغا فنية مفرقة من المضمين .. صيغا محايدة .. ترى في زخارف الخطوط الإسلامية التي على الأواني والخزفيات قالباً يوسى بالبركة ولا ينفل مع ذلك في كثير من الأحيان معنى لغويا واضحا ..



پاول کلیه، صورة كتابة سرية (١٩٢٤)

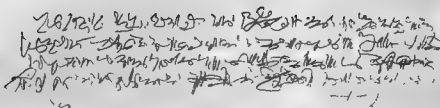


پاول کلیه، صورة كتابة ليلية، بالألوان المائية.

هذه اللوحات محفوظة في Paul Klee-Stiftung, Kunstmuseum, Bern



مايكنس تروكس، نقش سكال، عام ١٩٥٨

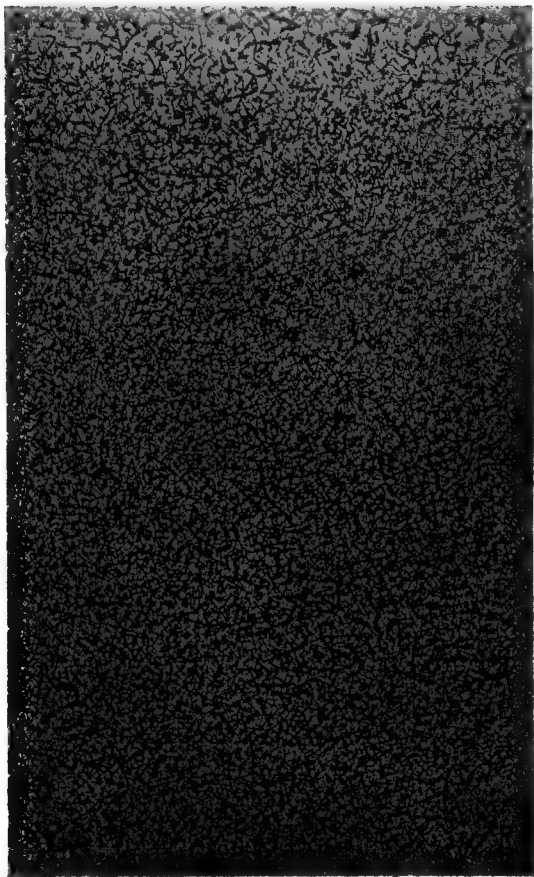


بالا، كليه، كتابة تجريدية (١٩٢١)  
هذه اللوحة محفورة في  
Paul Klee-Stiftung, Kunstmuseum, Bern

هانس ريشر ، حركات بسيطة.



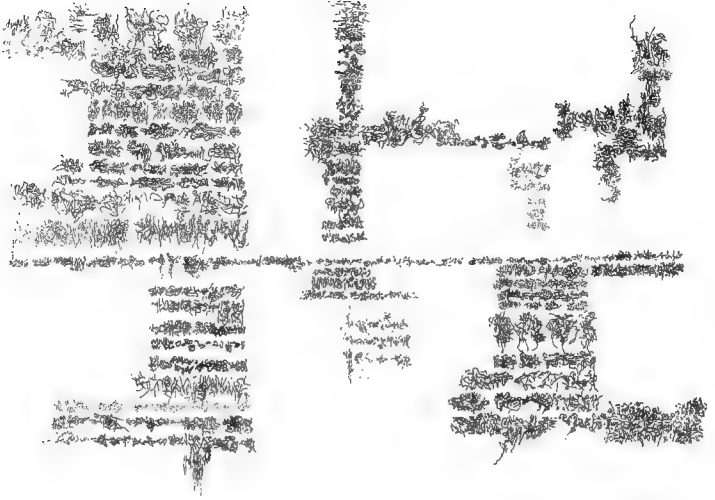
لوسية محافوطة في مجموعة خاصة بسويسرا.





هانس هارتنج، ٩٠-٩٩، لوحة زيتية، عام ١٩٤٩

▶ مارك توبي، لوحة انقتر. هذه اللوحة محفوظة في Kunstsammlungen Nordrhein-Westfalen, Düsseldorf  
 Werner Schmalenbach, Die Kunstsammlungen Nordrhein-Westfalen in Düsseldorf. Verlag M. DuMont Schauberg,  
 Köln 1970.



١٩٥٩م / ١٩٥٩م

برهان شولته، زم. عام ١٩٥٩

تشكيل الخطاط وإبداعه تصبح الآن بعدا رئيسيا في عمله،  
وفراغا مسجونا تظل منه الكتابة كوحدة متكاملة ..  
إن الكل هنا يزيد عن مجرد مجموع الأجزاء. وينطبق  
هذا المقياس على فن الخط قديما وحديثا وعلى كل  
الفنون ..

ترجمة: مجدى يوسف

وإلى الشرق الأقصى نلمس نفس هذا الاتجاه الذى يصبح  
فيه صناعة الخط فنا متحررا من أصوله، فنا تجريديا ..  
لم تعد تلعب فيه القيم الأدبية والفلسفية دورها بقدر ما  
تحركه عناصر موسيقية راقصة. هكذا يصبح عمل الخطاط  
وحدة كبيرة متأسكة من الحركة الإيقاعية ..  
قطعة الورق التى لم تلعب فى السابق دورا أساسيا فى

\*\*\*

بالخط ظهرت خاصية النوع الإنسانى من القوة إلى الفعل، وامتاز عن سائر أنواع الحيوان ... الخط أهم العلوم وأشرفها.

تسلسل دعوى فوق خدى أسطرأ  
ولا عجب من ذلك وهو ابن مقله

وأجاد السطورى في صفحة انحد  
ولم لا يجيد وهو ابن مقله

سبق الدمع في المسير المطايا  
إذ روى من أحب عنه بقلة







Horst Richter, Malerei unseres Jahrhunderts, DuMont Schauberg, Köln 1969. : اصنار :

فولس، الطيور (عام ١٩٤٩).

# الفنان الذي مات مفتوح العينين، فولس (آلفريد أوتو فولفجانج شولتسه)

قاله فرقة موسيقية من أكبر الفرق الموسيقية الألمانية. غير أن فولس كان يتأرجح بين الموسيقى والرسم كطريق يخافه لتحقيق ذاته. وعندما قد عام ١٩٣٥ في برشلونه آلة الكمان الثبينة التي كان يعثر بامتلاكها، اعتزل العزف على هذه الآلة، وإن لم يعتزل الموسيقى. فقد ظل حتى الأعوام الأخيرة من حياته يعرف على «البانجو» بعض أغاني باخ وألحان موتسارت. وكان يفعل ذلك بمثابة كبيرة.

كانت الموسيقى بمثابة عبير الحياة وأفانسا في بيت والده في دريسدن Dresden. تلك المدينة التي شهدت مولد أبيه وأمه. وكان والده من رجال القانون البارزين الذين ما لبثوا أن شقوا طريقهم في تلك الوظائف الادارية في الدولة. وفي برلين ولد فولس في ٢٧ مايو ١٩١٣.

اتبث اقامة الوالدين في برلين فجأة. فما أن نشبت ثورة ١٩١٨\* حتى استدعت حكومة زاكسن Sachsen موظفها المرموق — والده فولس — وعينه في أعلى منصب إداري في الدولة: مديرا لإدارة مكتب شئون الحكومة التابع للراثة مباشرة. حتى أنه أصبح يدعى بين مواطني زاكسن «بابا شولتسه» — نسبة إلى اسم عائلته «شولتسه» — كما صار يلقب «ملك زاكسن غير المتوج».

نشأ فولس إذا في أسرة من العيش، وإن اقترنت بنظام وتنظيم جاد يليق بأسرة أحد كبار موظفي الدولة. وكان يتخف من هذه الصرامة حب الموسيقى المتغلغل في العائلة. إذ كان كل من والدي فولس يعرف بمهارة. وكانت الحفلات الموسيقية التي تقيمها الأسرة تعدد بشهرتها حدود دريسدن. غير أن حب الموسيقى لم يكن الشيء الوحيد الذي امتلك قواد أهل البيت، وإنما كذلك حب الطبيعة. فطالما أغرم فولس منذ نعومة أظفاره بالحيرانات والنباتات، والصخور والجذور وظل يعيشها طوال حياته. أليس في الكثير من رسومه شيء كالصخور والجذور؟ لقد تحقق هنا ميل فولس إلى كل ما هو غريب.

وكما كان عهد فولس بالموسيقى، كذلك كان عهده بالطبيعة: لم يدع الماطفيات تقيض برغبته في التحصيل. وبمثل الحواس الجداد الذي أقبل به على دراسة الموسيقى، أقبل

(\*) التي اشتركت فيها روزا لوكسمبرج و«ليكنشت».

لان شئنا أن نمثل «فولس» وأن نتعرف على خاصية مميزة من خواص شخصيته، لكان علينا أن نتصوره كما يصفه أصدقاؤه: خارجا بنصفه من أحد المتاحد في فندق من عديد الفنادق التي راح يبدلها في الحى اللاتيني بباريس أو في أحد أركان فرنسا — في كاسي Cassia أو ديريلى Dieulefit — وقد أعغض عينيه «حتى يستطيع» — على حد قوله — «أن يرى أفضل».

كان فولس يتطلع حقيقة إلى الداخل، يمسك الكلمة بالبن وقلم الرسم، يمسك ما يراه ينمو في بطنه حديث. إنه يقول بالفرنسية: «لا تستعمل، بل كن وآمن» Ne pas faire, mais être et croire.

ربما كانت رؤية العالم على هذا النحو بعين الفنان الباطنية تفرق مجرد التركيز. ربما كانت تلك المصححة الداخلية في المراحل الأولى تمهيدا لارهاصة الإبداع الفني. ولكم سأل «فولس» نفسه: «أوعاء أنا، أم نبع أصيل، أم علم؟». أما أعماله فبرهنت على أنه كان النبع وكان الوعاء. كان النبع كلما انطوى على ذاته وأحس بالوحدة التامة، وكتم كان شعوره بالوحدة أبغى من أى تمييز. وكان الوعاء كلما أمسك ما يحمله إليه الوجه الباطنية وراح يشكل فيه. والواقع أنه يمكن متابعة عملية التشكيل والنمو البطيء في لوحات فولس. لا تروى. وإنما ترجمة الرؤية في حذر إلى صيغة نهائية ملزمة.

ما هو انباء فولس الفكري؟ من أين ينبع اتجاهه الفني؟ إنها إعادة سيئة أن نسعى إلى وضع كل جديد في نظامنا الفكرى المسبق بدلا من أن نحاول التعرف عليه من خلال واقعه. إنما علينا أن ندنو من حياة «فولس» بنظم خاص، وأن نبذل الجهد كي نرى فنه بمجاسية فائقة.

تلح علينا الاجابة الأولى عن مصدر فولس الروسى: إنه الموسيقى. فقد بدت على الفني فولس في سن مبكرة موهبة موسيقية ملفتة للنظر. حتى أنه بلغ من النضج المبكر كمازف على الفيلين (الكمان) قدرا جعل المايسترو الألمان الشهير «فريتس بوش» Fritz Busch يضمّن له منصب

تعليل التمرير: يلاحظ هنا القرابة بين هذه الصياغة الفرنسية والمثل البروسى الشائع، الذي يمسك أصل فولس الألمان: «من أكثر ما يبدو عيه» Mehr sein als scheinen.

فوتوغرافيا. فقد كان هذا التعريف أوضح في أذهان الناس من مهنة «رسام» وبالفعل فقد عمل فؤولس مصورا فوتوغرافيا في «جناح الأناقة» بباريس النول عام ١٩٣٧. لكنه لما لبث أن اعتزل بعرض باريس النول عام ١٩٣٧. فكانت ضاغت آلة التصوير التي كان يملكها. وهكذا فعل نفس الشيء كما فعل بالمعرف على الكيان من قبل.

ومن الغرائب التي تروى عن فؤولس أن كان في صباه على موعة ريفية في أداء الأعمال الميكانيكية الدقيقة حتى أن مصانع مرسيلس بديرسلن حاولت كسبه بمنحه لقب «أسطى حرفي» Meister.

أما الرسم فكان الوساطة الأساسية لتحقيق ذات فؤولس الفنان. وهنا تعرضت موهبته وتصاعدت بعد أن التقى بكوكوشكا Kokoschka، وكاندينسكي Kandinsky، وخاصة بابل كليه Paul Klee. ففي الأخير تفكر أول ما تفكر عندما نبحت عن السلف التي لفؤولس: ذلك القانون الساكن الذي يحكم عالم «كليه» Klee، وتلك الأشياء السحرية الرفيعة الدقيقة التي تتدفق بدورها من علم فؤولس الفكري والفني. وكما هو الأمر لدى «كليه»، وإن يكن على نحو غير ثابت ولا مستقر، نجد عند فؤولس توترا حادا يمزق قانون السكون بين الفينة والأخرى. وإن فؤولس المستائل هو الذي يولد هذا التوتر القريب من قوى تدمير الذات.

أدت الأحداث السياسية العارمة في برلين عام ١٩٣٢، حيث كان يعيش فؤولس، إلى الحد من أفق ألمانيا الفكرى، وهو الذي كان يقاس في المشرينات بافتتاح باريس على العالم. وهكذا ما لبثت باريس أن احتكرت هذه الميزة لنفسها في الثلاثينات. فلا غرابة إن اتجه إليها فؤولس حيث بلغها في ١٤ يوليو ١٩٣٢. بينما كان الشعب الفرنسى يحتفل ببيده القوى الكبير.

هنا، في فرنسا، أقام فؤولس بصفة دائمة. ولقد كانت في انتظاره حياة صعبة تكاد أن تؤدى به أحيانا إلى حافة الهاوية التي اختارها بنفسه. كانت تدعى «جرى» Gréty: المرأة التي راحت تقود سفن أحلام الفنان عبر المخاطر والمهاوى. وكانت تدبر خلا لبيع القبعات في باريس.

وعندما أقام فؤولس للمرة الأولى معرضا لصوره الفوتوغرافية حول اسم عائلته من «شولته» إلى «فؤولس».

وضمن المعرض لفؤولس» مستقبلا لا بأس به كمصور فوتوغرافى مرموق، على الأقل من الوجهة الاقتصادية. وظل

على درس الطبيعة، وخاصة الجيولوجيا، وعلى النبات والحيوان. ولم يكن فؤولس قد تعدى الحادية عشرة من عمره حين رأى نوعا عجيبا من الأملاك في داره لم تردّد حقيقة حيوان ديرسلن في التقدم لشرائها، وأتذلك تنبا مدير الحديقة للصبي الموهوب بمستقبل باخر كعلم في البيولوجيات. ورث فؤولس عن أبيه الموظف الكبير روح النظام والتنظيم في العمل. ولأن كان يقضى الساعات الطوال وهو ينسج أحلامه فوق غنّده، إلا أن هذه الأحلام لم تنفض كإطيات دخان الأفيون في القضاء والمدم. كان فؤولس يدور أحلامه «السفن» وفي لوحاته المائية تمر بنا أساطيل كاملة من سفن الأحلام. وقواد هذه السفن يدعون بديلير، ورامبو، وإدجار آلن پو، ونولابيس، وشيلى، ومورجنشون، وكافكا، وآرتو، والثلاثى الفكرى والروحي المتباين: لاوتسى، وغاندى، وألبرت آينشتين. ومن الاسم الأخير نلمس حب الفنان الكبير للطبيعة وقبالة على الرياضيات.

كان فؤولس يعلم كم هو مهدد بسبب تعدد مواهبه. كان يعلم أنه لا يعمل مهنة معينة. ولم يكن يرسم أبدا كمصاحب مهنة. بل كان يكره أن يعرض أعماله. وهكذا ظل متسائلا كثيرا، ينصت في لفحة وشوق إلى الأحماق. كان يضع علامات الاستظام دائما حتى على فته. وتبين حرفه من التشتت والضباع بين مختلف الاهتمامات المتباعدة فيما عبر عنه إلى أمه قبل وفاته بعام واحد، في ١٩٥٠: «كان كل شيء يفوق دائما طاقى؛ ما كنت أفعل وما كان يمكن أو أحب أن أفعل — ولكنى ما استطعت أن أفعل على غير ذلك».

وأثناء بحثه عن الحقيقة، عن الشيء الخاص في هروب الأشياء، عما وراء الظواهر والمظاهر، كرس نفسه عدة أعوام للتصوير الفوتوغرافى. فالتصوير الفوتوغرافى يشترط الرؤية التفصيلية المسبقة. وإن المقطع ليعتص من قدر النظرة الكلية، وإن كان يهيم النظرة إلى الجزء. وعندما نبحت عن الحقيقة نفعل شيئا شبيها. إذ نستخلص من ندوه قوانين الطبيعة من جاع الملاحظات الجزئية.

مرة أخرى صارت موعة فؤولس محط إعجاب وتبؤر بمستقبل كبير، وكان الذى تنبأ له بذلك هذه المرة «موهبى — ناجى» Moholy-Nagy أحد أساتذة حركة «الباوهاوس» Bauhaus الفنية الشهيرة، وأحد الذين أدخلوا تجديدًا ملحوظًا فى فن التصوير الفوتوغرافى العصرى، بحيث لا زال أثره ساريا حتى الآن.

كانت مهنة «فؤولس» كما دونت في جواز سفره: مصورا



فولس، دانٹلا، ریم بالقم، جول ۱۹۴۶

Aufzeichnungen, Aquarelle und Zeichnungen von Wols: DuMont Schauberg, Köln 1968. من کتاب:

دموية وتفجرا ومغاضبا عنيفا؛ إنه حدث، ولا شك أنه أهم حدث (فني) منذ أعمال فان جوخ. لقد غادرت هذا المرض وأنا أنقض. لقد حطم فولس كل شيء. وصار من اللازم بعد فولس أن يصنع كل شيء من جديد.. في مرحلة الازهاض الفنية الأولى استخدم فولس وسائل عصرنا اللغوية بأسلوب عبقرى لا سبيل إلى رفضه أو مناقضته، ثم راح يصعدا إلى أقصى درجة ممكنة من الكثافة. وما هو أكثر من ذلك أن هذه الوسائل التعبيرية كانت معاشة. لقد صيغ فولس أقدمه هذه اللوحات بدمه وبقصة حياته. إنها أربعون لحظة من لحظات صلب إنسان تجسدت فيه الحساسية والحكمة وتجسد فيه الصفاء. إنها شرف ليس للغرب وحده وإنما للبشرية جمعاء.

كانت الأحلام العجيبة، وكان انعدام الصدى، والألم، والبعد عن الأرض علامات إنتاج فولس المتأخر. كان يستهلك نفسه في الفن. ولقد عاش فنه، وشقت لوحاته طريقها. وصار يدهي في تاريخ الفن «أبا للتبقيعية» *Taschismus* - وكأنما عبرت هذه العبارة القاصرة عن كل ما يحمله من فولس! لقد صارت واحدة من عناصر الحوار الحميم الذي يمكن لأي منا أن يديره مع الفن الحديث.

منذ ١٩٤٧ وفولس مريض انهكه الخمر حتى الثألة. وقد تعرض بصره للخطر مما جعله ينعكف في مصحة علاجية خوفا على نور عينيه. ويعتقد بعد ذلك أنه قد بره فيغادر باريس مدينة المغريات التي لا تفرغ. ومرة أخرى تصاحبه «جريت». وتنعكس لوحاته الجديدة التي رسمها بألوان الماء في «شامبيني» *Champigny* علاقة عادت إليه من جديد: حب الطبيعة.

ونفجاء تحل النهاية. لقد أكل فولس لحما فاسدة. ولم يلفظ جسده السم. جسد الفنان الواهن. وفي أول سبتمبر ١٩٥١ توفي فولس عن ٣٨ عاما.

قال عنه هنري - بيير روشيه *Henri-Pierre Roché* وهو برثيه: «كان مواطنا عالميا طيبا» (...) «وكان مفكرا في المقام الأول، وكان شاعرا كبير القلب متواضعا، صريحا. كان فيه، بجميته المرتفعة المثبية ونظرة الصارمة في أكثر الأحيان، شيء من النبوة. كان رجلا من نسل عظيم.

(كم الحياة جميلة!) هكذا اعترف لي في أحد الأيام. لقد مات مفتوح العينين.»

الكل الفكرى باقيا في طبيعة واحدة كأسئلة «فولس» التي حل لها. ثم نشبت الحرب وحطمت كل الأمان. ألقى القبض على «فولس»، شأنه في ذلك شأن جميع الألمان المقيمين في فرنسا. وأدت هجمات البوليس الفرنسي وعدم تمييزه في عمليات الاعتقال إلى اختصار بعض المغلوبين على أمرهم أمام صيني فولس. هكذا ظل الفنان في تنقل مستمر من معتقل إلى آخر طيلة أربعة عشر شهرا. ثم أفرج عنه فجأة. وكان قد تزوج قبلها بقليل من جيتري *Gréty* في أكس *Aix*. ومن يدرى، فربما ذلك كان مدعاة للفرنسيين الذين يقدمون الحب كي يطلقوا سراحه!! قضى «فولس» و«جيتري» عامين على شاطئ البحر المتوسط في «كاسي» *Cassis*. وفي هذه الفترة راح فولس يرسم ويصور بالألوان المائية كالحصوم. ونشأت لوحاته الزيتية الأولى. ولما كانت حالة الزوجين الاقتصادية أفقر من أن تسمح بشراء أدوات الرسم إلا في حدود ضيقة، فقد كانت مساحات اللوحات صغيرة. ومع هذا فقد صارت أعمالا فنية لا تقدر بثمن!

وبدخول أمريكا الحرب العالمية الأخيرة انتهى عهد السلام والطمأنينة بالنسبة للبيئة المطل على البحر الأبيض. وقد عادت حملات القبض والاعتقال من جانب البوليس الفرنسي مما أدى «فولس» و«جيتري» إلى الحرب من هذا البحر المشورت إلى «ديوليفيه» *Dieulefit* بالقرب من «مونتيكار» *Montélimar*. وما توقفت فولس رغم كل هذا عن الخلق والابداع. وفي «ديوليفيه» خرجت من بين يديه مئات اللوحات التي تشهد على قوة ابداع خارقة. وكانت هذه اللوحات هي صانع عهده الفني. إلا أنه عندما عرضها في باريس عام ١٩٤٥ لم تلق اهتماما ولا اقبالا. ولكنه ما أن رحل فولس إلى باريس بمناسبة إقامة معرضه حتى انقلب الأمور وصارت باريس مرة أخرى معه. أما «جيتري» فكانت تبأثر زوجها من بعيد. إذ كان فولس قد استغرق في وحدته وصار يدمن الخمر ولا يعرف سوى رفيقا واحدا: كلبه.

وفي الثهور الأول من ١٩٤٧ انتهى فولس من رسم أربعين لوحة كبيرة الحجم. وكان قد طلبها منه صديقه بائع اللوحات «رينيه دروان» *René Drouin*. لكنها عندما عرضت لم تلفت إليها باريس. وإن أهتم بها ووافق عليها صديقا «فولس»: جان بول سارتور، وجورج ماتيو *Georges Mathieu*.

وكتب «ماتيو»: «أربعون راتعة! كل منها تفوق اختها

من مآثورات فؤلس

سيان عندي أن يصر الله  
في حلقات أم في خطوط مستقيمة.  
لكنه يستحيل  
أن يعرض من خلال أشخاص.

في كل لحظة  
في كل شيء  
حياة أبدية.

لا تستغل، كن وآمن.

الاستعانة بالارادة والطاقة  
أدنى من النية.

الإنسان في كل ما يوجد على سطح البسيطة  
أثقل الكائنات وطأة.

الصبر والأمل  
هما نفس الشيء تقريبا.

ما أكثر أن أتأمل بعين مغلقة  
ما أراه.  
كل شيء هناك؛ شيء جميل؛ شيء ينك.

الصدقة أستاذ كبير  
لأنها، في الحقيقة، ليست صدقة.  
الصدقة في حينها وحدها صدقة.  
إنها تساعد أستاذ يدعى «الكون».

الرؤية تعني إغلاق العينين.

أن ترى قرارة الشيء  
معناه أن ترى الشيء نفسه.

لو استطعت أن تنقل إلى الشيء حتى قرارته  
لتبينت أن هذا القرار  
أشبه بقرار ذاتك أنت.  
لكن أيمكن أن ينظر إلى الشيء حتى قراره؟  
أشعره، امنحه حيك.

النعمة تبعد وتباعد عنا دوما  
بسرعه تقارب ثلاثة كيلومترات  
في ثلاث ثوان. وهي لا تتوقف  
عن شق طريقها في اليراس اللانهائي المجهول.

لكنها تتوقف فقط عن أن تصبح محسوسة.  
نفس الشيء ينطبق، وإن يكن بسرعات متفاوتة،  
على موجات الضوء  
أو موجات الاشعاع.  
ونفس الشيء يصدق على حياة الانسان،  
وعلى الأفكار،  
والمعادن،  
وكل الأشياء.

هكذا يقف الانسان على أبدية الحياة،  
على ما لا نهاية له ولا حصر.  
وما من أحد يعرف إن كانت هناك عودة مقبلة،  
وحتى لو كانت، لما صارت ذات بال.

قصيدة مكتوبة:  
كذب لا يرى رباط عنقه.

امسكوا الخشب:  
ما أروع التحليق،  
ما أروع الحياة،  
لكنها كسلاح الطيران:  
عميلة الموت.

جلاميد الصخر — مع أنها ستروك —  
يمكنها أن تعلمنا، كم  
نحن زائلون.

على المرء أن يخلد القطة عندما يعمل  
يظل كقطع الأثاث المحيطة به ، دون حراك  
هذا يؤدي إلى الهدف.

ذات صباح جميل طافت برأسي فكرة لطيفة  
أن أعمل كل يوم ٣٩ ساعة و ٥٥ دقيقة  
لكني اكتشفت — لحسن الحظ —  
أن هذا مستحيل.

الذين يحملون وهم مستيقظون. يعرفون  
ألقا من الأشياء تقوى على من لا يحملون  
إلا في المنام.

العمل الحق  
يؤدي في وضع رأسي  
إن كان المرء يمي.  
المدويضي مضاعة الوقت  
لكنه ممل.

منذ البداية والحياة تعلمكم الألم  
لكنه الألم الذي يمينكم بدوره.

إنه الألم الذي يدفع ما فيكم  
إلى الخروج والبروز (ذاك الطوفان الذي لا سبيل  
إلى دفعه).

سأبقى في حاية ضميري المستريح  
مخلصا لأحقق ما في  
من اختيار.

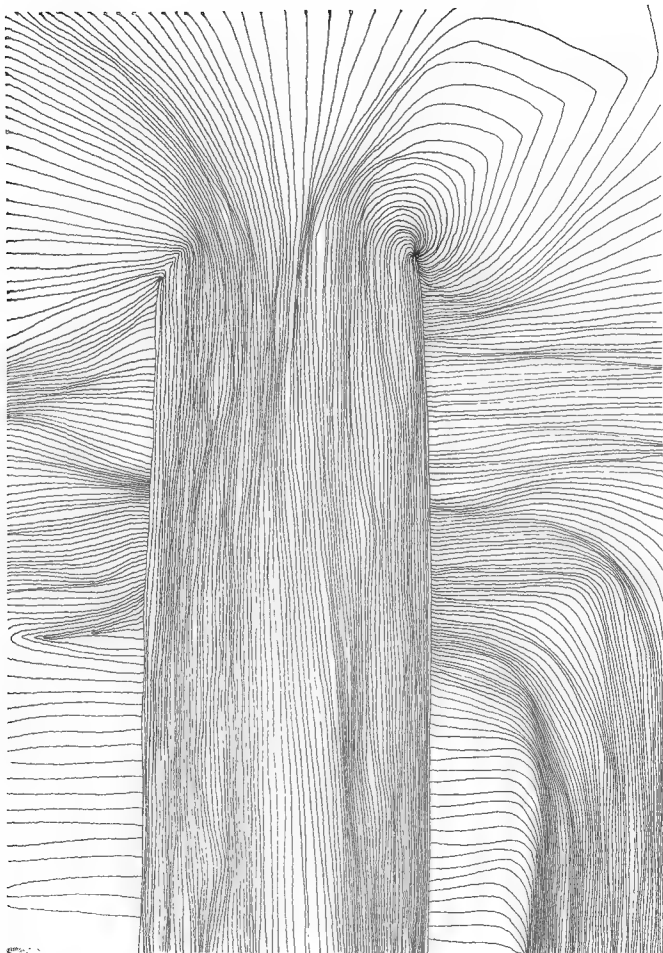
مغامرتي  
فيا وراء الأرضة التي فارقتها القطار..

فولس يحب بصدق  
المادة المحيطة بنا.

كل ما أحلم به يجري  
في مدينة جميلة جميلة ، كبيرة مجهولة ،  
لها شوارع وضواح فسيحة ،  
إني لا أتماسر أن أرمها.

كي ندرك الجلال لا بد أن نعرف القبح.

ترجمة: مجدى يوسف





# بعض الآثار في باكستان: رسوم جدران الضرائح بالقرب من "جوهي" بقلم م. ج. كونيتسكي

غصون الطلع الغرض منه إعاقه قطعان الماشية عن بلوغ المكان.. وإن بلوغه بواسطة سيارة "جيب" لأشق وأعسر، خاصة وأن حقول الذرة وأحواض الري وسدودها تعوق الرؤية على مدى الطريق.

وهناك أربعة عشر ضريح تبلغ مساحة كل منها ٥٠،٤- ٦،٥٠ متر، وهي تطلعا من بعيد بلونها الأحمر الترابي بينما تبدو من خلفها تجاه الغرب ظلال جبال "كرتشارا" بنفسجية. أما عن قرب فتبدو لنا تلك الضرائح جذابة تحطف الأبصار برسومها ونباتات الزينة التي تحلبها. وهي تقع وسط أشجار الطلع والقر هندي تحيط بها بضعة مئات من المقابر الخالية من أية زينة، والمبنية من أحجار النهر القريب (يدعى النهر بالسندية "كاجج")، وغيرها من المقابر التي على شكل مصاطب هريمية. أما الألوان الأساسية المستخدمة في هذه الضرائح فتتدرج من الأحمر إلى النيلة ومن الياقوتي (Rubia tinctorum) إلى الكرم الأصفر (Curcuma longa)، وهي توضع إما على اللونة أو على الجبس والجير المخلوطين بالطين.

وتبعث زينة الغرف الداخلية لتلك الضرائح على الاعجاب كل الاعجاب. فالجدران ذات الطاقات الخاصة بأكثر ضريح فيها، وهو من جهة الشرق وتبلغ مساحته (١١ × ١١ م)، وتزينها، بارتفاع قرابة المترين لوحات صغيرة (٣٠ × ٤٠ سم) تحيط بها أشكال النباتات المتسلقة وزهورها. وتصور هذه اللوحات شيوخ القبائل وزوجاتهم في أوضاع مختلفة وهم جالسين أو مرتكبين على المساند. غير أن أيدي العائنين قد خدشت هذه الصور حتى جعلت من الصعب التعرف عليها. وجدير بالذكر أن الذين فعلوا ذلك ليسوا من الأميين وإنما من أنصاف المتعلمين الذين شوهوا تلك اللوحات بامضاءهم المخفورة على سطوحها. ويبدو على طاقة الحراب التي في الحائط الغربي مشهدا لأحد المعارك الحربية. وهو يصور نفرا من بيض الوجوه يحاربون وهم على ظهور الفيلة والجياد سود الوجوه. وعلى هذه

بينما سلطت الأضواء في الأصوام الأخيرة على روائع المكشفات الأثرية في غربي باكستان، وخاصة ما يرجع منها إلى العصر البيدي، نجد أن آثار الحقبة الإسلامية في هذه البقعة قد ابتعدت عن مدار الاهتمام. وعزل مرجع ذلك إلى الرأي السائد بأن الذي قام به المسلمون منذ غزوم لبلاد الهند معروف! أما الواقع فهو أن الباحثين لم يتعدوا حتى الآن وصف الآثار الفنية التي كانت في مراكز الحكم خلال تلك الحقبة، أو التي تمكن المكشوفين من الوصول إليها دين أدنى مشقة. أما الآثار الإسلامية القائمة في مناطق يكلف بلوغها جهدا ومشقة - كضرائح "تالپور" (Talpur)، مثلا، بمقاطعة "جوهي"، مركز "دادو" (Dadu) - فما التفت إليها أحد.

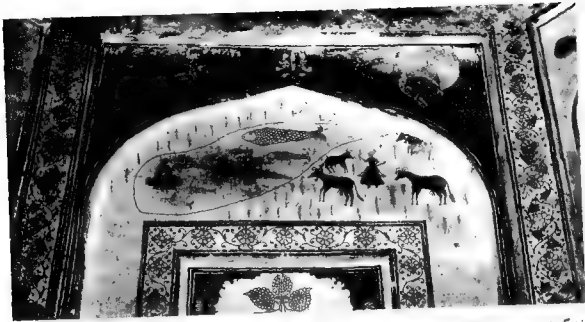
وجدير بالذكر أن منطقة الإندوس (نهر السند) تفص بضرائح العصر الإسلامي لدرجة أن عين المشاهد تكل في بعض الأحيان، فتضيق بعض الأشياء عن الانتباه.. وقد شيدت هذه المقابر - حسب مقولة أصحابها - إما من الطوب التي أو الحرق، وهي قد طليت بالطين أو بالمونة. ويعكس الضريح الحالة الاقتصادية التي كان عليها مشيدوه، فهو إما خال من أي زينة أو زخرف في داخله أو خارجه، أو أنه محلى بالموزايك الحرق، ومرصوف بالباط الذي تنتج أجود أصنافه في "ملتان" و"هالا".

وتتميز معظم تلك الضرائح، التي تدعى في السند ومقبرته، بالبساطة إذا ما قورنت بالآثار المجارية الفخمة القائمة في "أرضين"، و"كالهوا"، و"تالپور"، ومن ثم فهي أقل لفتا للنظر... وهذا هو ما يراعى عن بعد لمشاهد مجموعتين من القباب في الشمال الغربي والشمال الشرقي من هذه حاجي "شاه" في منطقتي "ساجن پالير" و"دوت گل محمد". (خط عرض شالي ٢٦° ٥٠، خط طول شرقي ٦٧° ٢٢، و ٢٦° ٥٠: ٦٧° ٢٣).

يصل بين "ساجن پالير" و"جوهي" طريق يبلغ طوله ٣٠ كيلومترا وإن اعترضه على بعد كل مائتي متر سد من



نظرۂ علّٰی شہر تالپوری جہلم



بات گل محمد . مشهد علی شاسی " مستنقع به آبک و تمساح .

كللك نجد صور أشخاص في ضريح وبئيل خانة الواقع في أقصى الجنوب الغربي. إذ نجد اللوحات الستة عشر التي تحت قبته لا تمرض سوى أشكال فرسان على ظهور الجياد. وإن كانت مياه الأمطار قد أفسدت ألوان هذه اللوحات في بعض الأماكن.

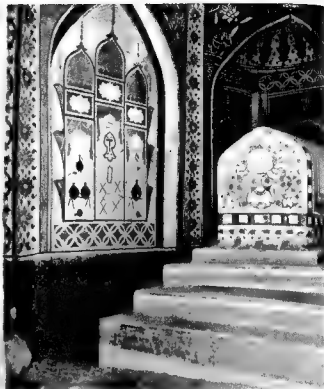
أما في سائر المقابر فلا نجد صوراً تعرض حياة أعضاء أسر زعماء القبائل وشيوخها. وإنما نجد بدلاً منها ما يصور العراك بين طلوسين ذكرين، أو غير ذلك من الحيوانات، أو ما يعرض أشكال الشاكلة والثأر وذلك المنصر الذي طامأ اقتضه أهل وتالپور؛ وحياتهم الشاقة فوق هضاب «بلوچستان» الشاقة الارتفاع: الماء. ويشاهد الزائر على حوائط الخراب صفواً من أباريق الماء، وحتى لا يكون للشك مكاناً فيها تريد أن تصوره هذه الأباريق نجد واحداً من بين كل بضعة منها معلقاً بيد غير مرئية في الهواء يوضح مائل وقد انسال منه خط من الماء.

ولما كانت تلك الضرائع بلا حراسة فقد نهب لصوص المقابر كثيراً من توابيتها، وكانت آخر مرة فعلوا فيها ذلك منذ ثلاث أعوام. وقد قال أحد النساك المقيمين بالقرب من تلك الضرائع أن للصصوص قد استولوا على ما فيها من حلى وأسلحة ثمينة.

وتقع بعض المداخل المؤدية إلى داخل تلك الضرائع

الأحرة الكبيرة تصور حدثاً تاريخياً هاماً. وليس بعيداً أن تعكس الموقعة الحربية التي دارت شملئ «خداباد»، حيث خرج قادة «تالپور»: «عبد الله فتح علي خان» و«مرزو قنبر» في معية نظاماني وجمالي شاربة مدبري النساك والمكائد: «كلهورا ميان» وعبد النبي وحلفائه (نصير خان الأول من كلات، و«راجهوت راجه» من «چودهپور») فالتصرو عليهم. وإن ذلك لممكن من الناحية المكانية والزمانية (١٧٨١م). أما فوق المدخل فتبين على الحائط الشرقي لوحة كبيرة أخرى، وإن كانت صور الفرصكو التي عليها محطمة تحطيا شبه كامل بسبب ما ألقى عليها من أحجار. على أنه بالرغم من تلك الخسائر الشديدة في اللوحات إلا أنه يمكن الوقوف أحياناً في بعضها على عرض ذي طابع متميز رفيع، وفي أحيان أخرى على أشكال الأزياء المصورة.

وتصور الجدران الداخلية للضريح المجاور من جهة الشمال بعض جوانب حياة المدفونين .. وعلى أحدها نشيد يجرى أحد الأهار والثنين من تماسيح المستنقعات تسميع فيه .. بينما يجاول أحدهما صبي إلى الماء، ويسمى احد البائسين إلى جذبه للشاطئ لانتقاده .. ويظهر على لوحة أخرى تقى مجازر وسط حطقة من المستمعين. ويبدو على الجدار الغربي تصوير معركة بين أسد وفيل ..



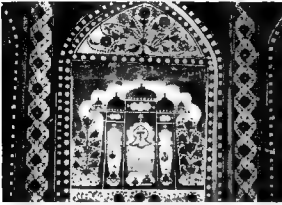
لقطة من أحد ضرائح ساجان باي من الداخل. حل أطباق الفاكهة بعض الباذنجان والكشاد (من قوق)، ومن تحت فلاح حصى منقوش (ويدهى بالسنترة؛ شريده).

حائط التيلة في أحد ضرائح ساجان باي. وفي النصف الأعلى من الحراب الأيسر يلاحظ تصوير من على شكل لقب مفتاح وهو يشير إلى الحديث الشريف: الصلاة مفتاح الجنة. وعلى الرئس موجود في سقف المقابر المخررة في تلك المنطقة. وترى من تحت هذا الرئس المنقوش حلقة من الأوريد وأباريق ماء على الجبين والبسار.

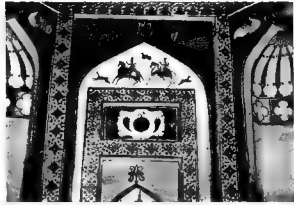
المقبرتين الواقعتين في الشمال. وترى صور المروحات مشاهد الضجل، والبامية، وحبات المانجو، والزيمان. أما الضريح الذي في الشمال الشرق فصوره لوحات الطيور: فن طائر جعل الماء قاعدة أو قاعاً، إلى اليمين، والأوز العراقي، والحباري، والطاووس، والحمام، والصقر، والبنفاء. وقد أوضح للمصورين حركة الطيران لدى الطير بأن صوراً كلا منها بزوجين أو بثلاثة أجنحة منشورة. كما أنهم عنا بتصوير زخارف مزدوجة للأسماك للدلالة على أنها حوامة ..

وتوجد فريق مدخل أحد الضرائح الغربية صورة تمساح تحيط به الأسماك في أحد المستقيعات. وعلى عكس صور التيسيح التي تمتد تصويرها في صاجن باله، نجد أن الأمر هنا يتعلق بتمساح هندي (gavial) أمامه سيده تحمل له وصفاً بين يديها وكأنها تقدم له ضحية.

في جدرانها الشرقية، والبعض الآخر في جدرانها الجنوبية. وهناك مجموعة شبيهة من الضرائح، جميع ملائحتها — بلا استثناء — من الشرق. وهي تقع في سهل هيت كل عمده الأصفر اللون الذي تكسو أشجار السنط وغصين نبات الأصفر الموزعة في أرجائه بين قرية وده خيرو خانة وقناة وجوي. وتحيط بهذه الضرائح مقابر كثيرة مبنية بالحجارة الصغيرة، ومقابر على شكل مساطب هرمية يثير بعضها الانتباه نظراً لتشكيل جزئه العلوى على هيئة «جهاز باي». ويوجد في الضريح الذي في أقصى الجنوب الشرق، وهو أكبرهم جميعاً، ستة توابيت من بينها تابوت «رائيس» دتل خان جمالي. وترى على الحوائط الداخلية صور مبارزة أو معارك بين بعض الأسود، أو لوحات تمثل إواني الفاكهة وبعض الخرز، والقرع المسلى والباذنجان، والعنب، والتفاح، والشمام، وإن لم نجد تصويراً لإنسان في كلتي



حائط القبلة في ساجان باي.



باب گل محمد: أميران على فرسين، وغزلتان فوقهما مالوسان وحيتان (الفرسخ رقم ١٠ من الرحلة القرية).

إلا الصيد وقليلًا من الزراعة .. أما نشاطهم الفني فتمتاز زوجاتهم في إنتاج أعمال التطريز النفيسة والمنسوجات من الصوف .. وبما يدعو إلى التساؤل الشديد ذلك الاحتفال الآخر القاتل بأن أهل الدلوري، Lori، الذين كانوا ولا زالوا يقيمون بكافة الأعمال البدوية في داخل «بلوچستان»، هم أولئك الذين قاموا بتلك الرسوم المذكورة.

وتدلنا بعض السمات التي توحى بالمشابهة بين الصور التي تمثل Languren وبعض رسومات الدراجيوت، إلى المفراض أن نقرأ من فنان «دراجيوتانا» هم الذين قاموا — كهنوس! — بهذه الرسوم على الجدران، وذلك بإيماء من «البلوچ» الذين عرف عنهم سعة الأفق والتسامح الديني. ويقوى هذا الاحتمال أن هنالك كانت علاقات وثيقة تربط بين شعبي «الدراجيوت» و«البلوچ» منذ مئات الأعوام .. فقد عرف عن البلوچ أنهم خدموا في الصفوف الأولى في جيوش الرانجيت، كما عرف عن ال«گيجيكي» بالذات أن الدم «الراجيوتي» يجري في عروقهم ..

ولعل بعض رؤساء البلوچ (متدار) قد أوجروا الفنانين ببعض الموضوعات التي تذكروا بالقباب: يلاحظ ذلك في تصوير بعض الفرسان فوق جيادهم وكذلك في بعض صور الحيوانات الأخرى .. هذا رغم الاختلاف التام في النتيجة التكنيكية .. أما في مقابر دائرة «جوهي» فتشكر الرسوم والتقرش وأما في قباب منطقة «خاران» فتجد لوحات من الفخار المحروق يرسم بادره لفرسان وحوش مثل الفيل والأسد والجمل والخيول، والخطوط الخارجية لهذه الأشكال تكون حزا عميقا عليه وتكسوها خزفية زرقاء.

ونحت قبة الضريح الواقع شرق ذلك التأمم في أقصى الغرب نجد تصويرا لستة عشر فارسا يكاد أن يكون نسخة طبق الأصل من الرسوم الداخلية في مقبرة «بنيل خان» «ساجن پاتيج». وبما يلتفت النظر في هذا الضريح — علاوة على ذلك — صورة لدب ولطافقة من الأسماك المقدمة على أطباق، وهي غالبا من نوع «دهمرو» أو «رومرو» (Taboo rohita) التي تعد من اللذات أصناف السمك الموجودة في بحيرات إقليم الاندوس.

أما رسوم الجدران التي لا زالت على أحسن حال، فتعبر عليها في الضريح الجنوبي الغربي، حيث نشهد في الجزء العلوي من الأقواس المدببة صورا لأحداث هامة في حياة المدفونين.

ويمكن القول إجمالا أن لوحات ضرائح وتحصيل «جوهي»، البالغة من العمر مائتين عاما، تعد فريدة من نوعها .. وترجع قيمتها في القام الأول إلى أنها تخرج عن القاعدة وتصور الإنسان مع أن ذلك كان محرما، حتى أن مسلمي غربي الباكستان الحالية لا زالوا يقيمون ذلك التحريم في تزئين مقابرهم، هذا فيما عدا تقوش توابيت «البلوچ» في «مكران»، وفي «لاس بيلاء»، وفي جنوب السند، وكذلك في تلك المقابر الغربية التي تتخذ في بنائها شكل إنسان في «خاران» والمقابر المنيعة (كغند). وبالقرب منها، في «مكران».

غير أنه من الصعب القول بأن لأولئك الفنانين الذين ابتدعوا تلك اللوحات علاقة «بالبلوچ» .. «فالبلوچ» بدو محاربين لا يعرفون إلى جانب تربية الحيوان والقتال



بات گل محمد، رئیس داتل خان، الیهیة الثیالیة من الفریق المافر.  
زیبان عل جہار پای (مقدہ بخند) بحیث ہما جاموں الماء، ویبدو کی  
الحلف أحد بازات القنص.



بات گل محمد: راضی یزڈل جالسا عل حضرہ، ومن وراثہ المامز تری،  
وشخصان فوق ظہر جہل مہین مسرع یقودھا زاک.

للموتی» فی شکل منتجات طبیعیة، خاصة وأن «التالپور»  
قد عاشوا فترة فی «مکران» و«خاران» قبل أن ينتقلوا  
إلى منطقة السند.

أما أهمية هذه الرسوم بالنسبة لعالم الحيوان فهي تلتخص  
فی أنها تسمح له بالتعرف عن طريقها على أنواع الحيوانات  
التي كانت تعيش فی ذلك الأقليم منذ مائة عام، والتي  
انقرض كثير منها اليوم كالفيل مثلا .. أما الأسود فقد  
فقد الضابط «ماکری» McRea على آخر أفراد سلالتها  
فی القرن الماضي. كما انقرضت الباسع، بما فيها تماسيح  
المستنقعات والتمساح الهندي، من تلك المنطقة. ولم يعد  
يعيش فيها سوى بضعة فی مستنقعات أنهار جبال «کرتر»  
الجافة .. وقد تندررت جدا فی تلك النواحي الدبية، والغور،  
والأغنام البرية، والماعز الوحشي، والغزال ..

أما اللوحات فقد دفع الخاسر الديني المشتعل إلى تدمير  
ثلثها تقريبا .. وما لم تصل إليه أيدي الغزيرين أصيب  
بالأحجار. وإذا ما كان قد تبقى شيء من هذه اللوحات  
فإنما يفضل بعد عدد من المقابر عن المناطق المأهولة  
بالسكان .. غير أنه ربما لتحسين وسائل المواصلات يوما  
بعد يوم، وسوء الحراسة على هذه الآثار القيمة أصبح  
خطر التآكل والتدمير يهددها بشدة مما يعد بمثابة خسارة  
لا سبيل إلى تعويضها.

ترجمة: مجدى يوسف و ماجده جوهر

هذا بجانب أن موضوع الطاووس والتيمان الذى يطالعا  
فی المقابر يظهر أيضا فی شكل قتال بين حية وطاير غريب  
الشكل («عقواء») فوق إفریز الحوائط الخارجية للقباب ..

وهذه النقوش كلها تمثل وثائق مثيرة للمؤرخ بلوحاتها الحية  
التي تنقل صورا من المعارك والمبارزات ومناظر للصيد  
والحيوانات المختلفة ..

أما المعنى بالسلالات البشرية وأصولها فهي تنقل إلى  
صورة ناطقة لمعادن وحاجات أعضاء جماعة «التالپور»  
مثل التصلح إلى الماء والمروج الخضراء من أجل الجمال  
والخيل والجاموس الثرى بل ومن أجل البقر والغنم  
أيضا .. وهي تمثل كذلك الشوق إلى مزارع الفاكهة  
والخضراوات وإلى النواحي الزائرة بالوحش البرية حيث  
الجمال واسع لمطاردة الصقور والقهود والعودة بألوان من  
الحيوانات الرضبة الحية التي تستخدم فيما بعد فی الاحتفال  
بالعراس بئنها.

وعلى زعماء القبائل حين زينا أضرحة موتاهم بمناظر من الحياة  
المنعمة الرغدة كما كانت تبدونهم فی صور الماء والقواكه  
والمواشي، إنما كانوا يعبرون فی صورة متطورة عن ترويد  
الموتى فی قيوهم بأحسن المأكول والمشرب وأدوات الزينة.  
كما يمكننا من خلال هذا التفسير أن نشير إلى ارتباط جائز  
بالقباب الموجودة فی «خاران»، حيث عثر هناك على «زاد

# ميرزا قليچ بيك، الأديب السندي وقصته التربوية زينت

بقلم انا ماري شميل

تذهب الى الصحراء وتسبح في البحر حتى تجد المشوق  
المفقود وحتى تموت في عرض الطريق، غارقة في البحر  
أو جوعانة في الصحراء...

كان المتصوفون في السند يرمزون بآياتك النسوة العاشقات  
لقلب الانسان المشتاق الى الله فاذا به لا ينال سعادة  
الوصول إلا في لحظة الموت. ولا يزال يترنم بهذه الأشعار  
الصوفية كل ناطق بالسندية حتى هذه الأيام.

كانت منطقة السند من ناحية أخرى مركزاً للأدب  
الإسلامي وثقافة العلماء والفقهاء، وتجد في القرون الأولى  
لهجرة كتب التفسير والحديث وسائر العلوم بالعربية،  
ثم يبدأ رواج الأدب الفارسي بعد القرن الثاني عشر  
في السند، إذ يعد لسان المؤرخين وشعراء البلاط والمصنفين  
المتصوفين، وقد استمرت الحال على ذلك حتى أواسط  
القرن التاسع عشر. اما اللغة السندية فاستعملها المتصوفون  
في آياتهم التي كانوا يلقينها في مجالس السماع؛ ثم ان غنودم  
محمد هاشم قد راح في أوائل القرن الثامن عشر ينظم قصص  
محمد رسول الله وحكايات الصالحين بلغة عامية كي يسهل  
حفظها على الأطفال المسلمين... حتى أن بعض معاصري  
غنودم محمد هاشم قاموا بترجمة بعض سور القرآن الكريم  
الى السندية. وكانت اللغة السندية تدون في ذلك الوقت  
بالحروف العربية عند المسلمين والحروف الديوناغرية  
عند الهندوس، والخط «الفراجكي» عند الإسماعيليين،  
وخط «الگورجكي» لدى جماعة «السكه»، وكان كل واحد  
يستعمل من الحروف ما سهل عليه. ثم، بعد أن فتح  
الإنجليز ولاية السند عام ١٨٤٣ أفردوا السندية الخط  
الغربي مزودا بالخطق الزائدة وذلك في عام ١٨٥٢، وطبع  
الكتاب الأول - طبعاً على الحجر - بهذه الحروف الرسمية  
عام ١٨٥٣ في مدينة كراتشي، كما استخدمت نفس

لا شك ان تربية النساء من بين الموضوعات التي لا زالت  
تنفي كل مهمتهم باصلاح التقاليد الاسلامية وتاريخ هذا  
الإصلاح. وما نحن نرى في عصرنا الحديث المرأة العربية  
والتركية والإيرانية والباكستانية تشارك في حياة المجتمع  
مشاركة فعالة، بل كثيراً ما تلعب دوراً له خطورته سواء  
في السياسة أو في التربية والتعليم، أو في العلم أو في الفنون  
الجميلة فضلاً عن سائر ميادين الحياة العامة. على ان المرأة  
لم تبلغ ذلك الا بعد كفاح طويل بدأ في العالم الاسلامي  
منذ تحوُّر من الزمان.

نقصد في هذا المقال تصوير أحد الأدباء المسلمين في السند،  
تلك الولاية الواقعة على نهر السند (الإنديس) وتمتد  
من كراتشي الى ملتان، وهي تشكل الآن القسم الجنوبي  
من الباكستان الغربية. اما هذه المنطقة ففتحها العرب  
عام ٧١١ للميلاد وصارت مركزاً للعلوم والدراسات الاسلامية  
في عهد الخلفاء العبّاسيين ومن أتوا بعدهم. والأديب الذي  
نركز عليه مقالنا هذا هو «ميرزا قليچ بيك» (١٨٥٤-١٩٢٩)  
الذي دفن بآنفاسه الشبيهة لأنفاس عيسى حياة جديدة  
في الشعر والنثر السنديين وكذلك في علوم السند وفترتها  
كما شهد بذلك أحد احفاده.

كانت تدعى السند، منذ قرنين طويلة، «بملكة الأولياء»،  
وإننا لنعثر في الأدب الشعبي السندي على مئات الحكايات  
وآلاف الآيات حول كرامات هؤلاء الأولياء الذين استوطنوا  
السند منذ القرن الثالث عشر للميلاد، ومنهم الرجال  
والنساء... وتجد في نفس المنطقة حكايات شعبية حزينة  
تدور حول حياة مشاهير العشاق ومعاتهم، فتم «مسي  
وينون» و«عمر ورمي» و«سهي ومهتال» و«ليلا جنيسر»  
وغيرهم كثيرين. وجدير بالذكر أن المرأة تلعب دور المبادرة  
في هذه الحكايات، فهي التي تعشق وتشتاق، وهي التي

لأن فتح القارئ الصابر فهرست الكتب التي دونها قلم «ميرزا قليچ بيك» لإستولت عليه الحيرة والصعب أمام عنوانين أكثر من ٣٠٠ كتاب، ما بين ترجمة تاريخ بابل ودروسة في زراعة الحدائق، وفلسفة «روجر بيكون» و«هرلوك هيلس». ومن أهم ما قدم للقراء السنديين تراجمه لمسرحيات شكسبير وهي حقا مفيدة، وقد حول المكان وأسماء الأشخاص الى امكان وأسبأ إسلامية حتى أن «هاملت» صار «شاه زاده» «هرام» وقد جعل «هاملت» يقرأ في المقبرة بعض رباعيات روبرت الحليم المشرية الى فناء الحياة الدنيا، كما أنه أدخل رموز وإيماءات مأخوذة من قصة يوسف وزليخا في هذه المسألة، وأيضا حور البنديفة في ترجمته لمسرحية «تاجر البنديفة» جعلها منها «دولت آباد». اما التاجر اليهودي البخل فحول الى تاجر من اهل الهندوس الذين اشتهروا ببخلهم وطمعهم. وكما أنه أعطى على آثار شكسبير بردة شرقية، كذلك ترجم قصة لثمانية للأطفال من الأدبية (أو الإنجليزية) الى السندية وهي حكاية «سلة الزهور» لكريستوف فون شميث، فقد دونها بأسلوب تروى سهل، وإن وجد الأطفال الألمان الماصرون نفس القصة في أصلها ثقيلة الظل واليقع، تفقد شخصوها الى الحياة ... وهي تمثل السير الفضلى، ولقد صارت هذه القصة مقبولة للغاية في بلاد الهند عند الأطفال المسلمين ... وترجم «ميرزا قليچ بيك» كثيرا من الأشعار الإنجليزية، واختار من الشعر الهندي القديم ما استحسنته، مثل الحكاية المشهورة لكاليدياس والمسماة «شاكوتالا» كما ترجم السندية رباعيات عمر الحليم وأشعارا فارسية أخرى. وكان «قليچ» مهتما بالتاريخ، فذلك نثر في فهرست كتبه على رسائل هن بال تاريخ، و«نيلويا» وعن الحرب الألمانية، وصغر القديمة، وكذلك على عدد كبير من كتب التاريخ الإسلامي، منها «تاريخ السند» الشهير، وترجمة للمؤلف الأول في تاريخ السند وعنوانه «چانجامه»، وكان قد صنف في القرن الثاني عشر الفارسية مستندا على كتاب قديم جدا بالعربية، وقد ضاع الآن النسخ العربي في القرنين الوسطى وسقط الآن الفارسي. وجمع ما جمع من الأمثلة السندية مقابلا إياها بالأمثلة الفارسية والعربية. وكان يجلب الى التصوف ولذلك ترجم عددا من الكتب الصوفية، سواء كانت تدور حول سوانح حياة الشيوخ أو تتناول تأليفات مولانا عبد الرحمن «جاني» (المتوفى ١٤٩٢ في مدينة هرة)، ومنه «نخبة الأحرار» و«مطلع الأبرار» وكذلك «گلشن راز» لمحمد الشبيري (المتوفى ١٤٢١) و«كيمياء السعادة للإمام الغزالي ...

طريقة الطبع في مطبعة «چاپ خانه محمدی» في بومباي. ثم أسست المطبعة الأولى بالحروف المحظقة في كراتشي عام ١٨٦٩، وبعد تأسيس هذه المطابع أقيمت مطابع أخرى في شال الولاية، واحتاج اهل السند الى أدب جديد يمكن انتشاره بواسطة هذه المطابع. ومن الغريب أن أول طبع لأشعار الشاعر المتصوف الكبير - ويعتبر الشاعر الوطني للسند - «شاه عبد الطيف البتائي» (١٦٨٩ - ١٧٥٢) صدر في لندن على يد «داع» نصراني للآني يدعى «أرنست ترسب» Ernest Trussup. وقام بعض الهنود المثقفين بترجمة الكتب والمقالات من الإنجليزية كما أسسوا الجرائد والمجلات، حتى أن أحدهم أضاف الى جريدته صحيفة خاصة بالنساء، وإن طبع ذلك الملحق النسائي بأساطير الغرومكي، لا العربي.

لأسبيل الى الاقلال من أهمية ما قام به الهندوس في ميدان التأليف والطبع والنشر في هذه السنوات، وأنهم بلادييرين بكل ثناء، كما أن لم آثار مهمة في تطور الأدب السندي والصحافة السندية، ومع كل ذلك فان «ميرزا قليچ بيك» يستحق أن يدعى أبا روحانيا وقطبا ذهنيا للأدب السندي الحديث. وقد كتب أحد ابنائه:

وقد اطلع على الكتب بشئ انواها في الشرق والغرب  
كى يعلل الهنديق المين اللى فى الأدب السندى سواه  
كان متورا ام منظوما وقد ترجم الى السندية السلسلة  
جواهر ما نظم الشعراء ونثر العلماء، سواء كانوا كبار الأدباء  
او الفلاسفة أو المتصوفة من العارفين والفلاسفة العقليين،  
وروضها أممنا، فاما من موضوع أو عنوان إلا واعمل قلمه  
فيه ...

يمل «ميرزا قليچ بيك» مثال المثقفين المسلمين في أوائل هذا القرن، أولئك المثقفين الذين طلبوا العلم والإرشاد «ولوى الصين» .. أوفى أميركا .. بغية نشره بين مواطنهم. كان «ميرزا قليچ بيك» كما نستدل من اسمه، تركى الأصل، جاء ولده «فريدون بيك» من التفتاس الى السند في عصر آخر الحكام من سلالة «تالپور». ولد «قليچ» (أى «سيف») عام ١٨٥٤ في حيدرآباد، مقر البلاط الذى أسسته سلالة «تالپور» حول عام ١٧٨٠، ودروس في مدينة بومباي، المركز الحكوى لإدارة ولاية السند في تلك الحقبة. ولم يحمل تعلم لغة أجداده، أى التركية. ثم عمل في خدمة الحكومة البريطانية لمدة ثلاثين عاما حتى تقاعد في ١٩٠٩، وكانت الحكومة قد أنصبت عليه بقلبي «شمس العلماء» و«خان بهادر»، وما زال يشغل بالكتابة ووضع المؤلفات حتى توفته المنية عام ١٩٢٩.



أُتِيَتْ أُمِّسَتْ مَكْتَبًا خَاصًا بِالْفَتَايَا فِي دَارِهَا ... وَقَدْ كَرَّرَ وَنَزَّرَ أَحْمَدُ كَرَامَهُ فِي تَرْبِيَةِ الْبَنَاتِ وَتَحْصِيلِهِنَّ الْعِلْمَ إِلَى حَدِّ مَا، فِي قَصِّهِ «بَنَاتُ الْعَشْرِ» وَكُرِّسَ حِكَايَةً أُخْرَى لِمَسْأَلَةِ تَعَدُّدِ الْأَزْوَاجِ وَهُوَ مَا يَكْرَهُهُ أَشَدُّ الْكُرْهِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَفْكَارَ وَنَزَّرَ أَحْمَدُ انْتَشَرَتْ وَعُمَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُنْتَدَى فِي الْأَجْيَالِ الثَّالِيَةِ، وَمَا زَالَ كِتَابُهُ «مَرْأَةُ الْعُرْسِ» مِنْ أَشْهُرِ الْكُتُبِ عِنْدَ كُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ الْأُرْدِيَّةَ مَعَ أَنَّ أُسْلُوبَهُ لَيْسَ جَذَابِيًّا وَلَا مُشَوِّقًا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ...

أَمَّا «مِيرْزَا قَلِيْبْ بِيك» فَتَرْجَمُ قِصَّةَ أُرْدِيَّةٍ عُنَوَانُهَا وَهِيَ النِّسَاءُ إِلَى السَّنَدِيَّةِ وَتَأَثَّرَ بِهَا حَتَّى أَنَّهُ أَلَفَ قِصَّةَ جَدِيدَةٍ عُنَوَانُهَا «زَيْنْت» عَامَ ١٨٩٠. ثُمَّ نَشَرَ حِكَايَةً أُخْرَى سَمَّاها «دَلْ أَرَام» وَهِيَ قِصَّةُ خَيَالِيَّةٍ تَدْرُجُ فِي بَيْتِ سُلْطَانٍ مِصْرِيٍّ وَتَحْتَرِي عَلَى نَصَائِحٍ مُفِيدَةٍ لِكُلِّ قَارِئٍ وَقَارِئَةٍ... ثُمَّ جَمَعَ مَا جَمَعَ عَنْ سِيرِ النِّسَاءِ الشَّيْئَرَاتِ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ وَنَشَرَهَا تَحْتَ عُنْوَانٍ وَتَحْقِيقٍ «النِّسَاءُ» وَفِيهَا سِيرَةُ خُدَيْجَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَرَبِيعَةَ الْعُدُوَّةِ الصُّوفِيَّةِ وَرَضِيَّةَ سُلْطَانِ حَاكِمَةِ دُحَلَى أَوَّلَ الْقُرُونِ الثَّلَاثِ عَشَرَ، وَمَعَاصِرَتَهَا شَجَرَةَ الدَّرِّ الْمِصْرِيَّةِ، وَشَهْدَةَ الْكَاتِبَةِ، بَلْ وَحَتَّى «فَرَقَةَ الْعَيْنِ الشَّيْئَلَةِ الْإِيرَانِيَّةِ». وَإِنْ كَانَ الْأَدَبَاءُ الْقَدَمَاءُ قَدْ أَلْفُوا رِسَالَتِي فِي النِّسَاءِ الْمَشْهُورَاتِ وَالشَّاعِرَاتِ الشَّيْئَرَاتِ وَإِنْ احْتَوَتْ كُلُّ مِنْ كُتُبِ طَبَقَاتِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى بَعْضِ سِيرِ الْخَوَاتِمِ الصُّوفِيَّةِ الشَّيْئَرَةِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ، لَا سِوَا فِي إِيرَانِ وَالْهِنْدِ، فَقَدْ جَلَّبَ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْأَبْحَاثِ أَهْطَامَ الْمُؤَلِّفِينَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أُخْرَى فِي أَوَّلِ الْقُرُونِ الثَّلَاثِ عَشَرَ، خَاصَّةً فِي الْهِنْدِ، وَهَذَا عَلَى الْعَكْسِ مِنَ ادِّعَاءِ دَعَاةِ النِّصْرَانِيَّةِ بَانَ وَضَعِ الْمَرْأَةِ فِي الْإِسْلَامِ وَمَقَامِهَا فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَى شَرِّ مَا يَتَصَوَّرُ الْإِنْسَانُ، أَوْ أَنَّ لَا رُوحَ لَهَا وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ. وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ قَدْ وَدَّوْا أَنْ يَبَيِّنُوا دَوْرَ النِّسَاءِ الْحَقِيقِيِّ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ وَإِنْ بِالْفَرَاغِ بَعْضُ الشَّيْءِ... وَقَدْ جَمَعَ «سَيِّدُ أَمْرِ» مُؤَلِّفُ كِتَابِ «حَيَاةُ مُحَمَّدٍ» الَّذِي نَشَرَ فِي أَوْرُوبَا تَحْتَ عُنْوَانِ The Spirit of Islam سِيرَ الصَّالِحَاتِ وَمِنْ لَعِبِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ دَوْرًا لَا يَسْتَهَانُ بِهِ فِي تَطْوِيرِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ وَالثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَبِعَهُ «مِيرْزَا قَلِيْبْ بِيك» بِكُتَابِهِ السَّنَدِيِّ.

وَنَظَنُّ أَنَّهُ أَوَّلُ مَسْلُومٍ فِي السَّنَدِ أَوَّلَى اِهْتِمَامِهِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَإِنْ كَانَ أَدِيبٌ مِنَ الْهِنْدِيِّينَ اسْمُهُ «كَرِيمُولْ جَنْدِيل» قَدْ أَلَفَ رِسَالَةً فِي «فَوَائِدِ تَرْبِيَةِ النِّسَاءِ» عَامَ ١٨٦٩ ...

وَيَعْبُرُ «مِيرْزَا قَلِيْبْ بِيك» فِي مُقَدِّمَتِهِ لِقِصَّةِ «زَيْنْت» عَنْ أَمَلِهِ فِي أَنْ تُؤَثِّرَ هَذِهِ الْقِصَّةُ تَأَثِيرًا عَمِيقًا فِي قُلُوبِ النِّسَاءِ،

وَكَانَ شَاعِرًا قَدْ قَصَّدَ إِلَى تَحْقِيقِ قَدْرِ مِنَ الْقَضَاءِ أَعْمَقَ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ بَيْنَ الْأَقْوَامِ وَالْأَدْيَانِ وَالزُّبُوفِ مِنَ الْمُنَازَعَاتِ الدِّيْنِيَّةِ وَدَوْرَ لَوْ زَالَ سِوَا الْقَضَاءِ الْغَالِبِ بَيْنَهُنَّ، وَلِذَلِكَ تَرْجَمَ التُّورَةَ وَالزُّبُورَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَى السَّنَدِيَّةِ وَوَصَفَ الْأَدْيَانِ كُلَّهَا عَلَى قَدْرِ اسْتِطَاعَتِهِ فِي رِسَالَتِهِ «مَجْمَعُ الْمَذَاهِبِ» وَكَذَلِكَ فِي كِتَابِ «صَلِحْ كُلِّ»، وَكَانَ هَذَا التَّصْمِيمُ لِلصَّلَحِ الشَّامِلِ مَحْبُوبًا عِنْدَ الْمُتَصَوِّفِ فِي الْهِنْدِ مِنْذُ عَصُورِ طَوِيلَةٍ وَاسْتَعْمَلَهُ الْإِدْبَارُ «أَكْبَرُ» (١٥٥٦-١٦٠٥) فِي سِيَاسَتِهِ الْمَلِكِيَّةِ عَلَى التَّسَامُحِ الدِّيْنِيِّ الْعَامِ. وَمَا مِنْ مُؤَلِّفٍ صُوفِيٍّ وَلَا أَدِيبٍ شَيْئَرٍ فِي الْغَرْبِ أَوْ الشَّرْقِ إِلَّا وَقَعَلَ «مِيرْزَا قَلِيْبْ» قَسْمًا مِنْ مَوْلَانَتِهِ إِلَى السَّنَدِيَّةِ.

زِدْ عَلَى هَذَا أَنَّهُ أَلَفَ كُتُبًا عَدِيدَةً حَدِيثِيَّةً فِي مَسَائِلِ الْاِقْتِصَادِ («دُسْتُورُ الْمَعَاشِ») وَتَرْجَمَ رِسَالَتِي تَحْتَرِي عَلَى أَيْمَاتٍ لَطَرَقَ تَقْوِيَّةَ هِمَّةِ الْإِنْسَانِ وَإِرَادَتَهُ وَأَجَابَ عَلَى التَّسْأُولِ حَوْلَ «كَيْفَ أُصْغَلُ عَلَى التَّوْقِيقِ فِي أَعْمَالِي وَحَيَاتِي» بِتَرْجُمَتِهِ لِكُتُبِ «جِيْمِسْ آلَنْ» James Allen كُلِّ شَيْئِدٍ تَوْقِيقِيَّةٍ بِنَفْسِهِ «وَمِنْ الْفَقْرِ إِلَى السُّلْطَانِ» وَ«كَيْفَا نَفَكِرُ...»

وَمِنْ ثُمَّ فَقَدْ عَمِلَ «مِيرْزَا قَلِيْبْ بِيك» عَلَى تَقْوِيَّةِ شَخْصِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِبْقَاظِهِمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ، وَتَابِعَ بِذَلِكَ نُمُودَ الْمَصْلَحِ الْكَبِيرِ فِي الْهِنْدِ، «سَيِّدُ سَيِّدِ أَحْمَدُ خَان» (تَوَفَّى ١٨٩٦)، مُؤَسِّسُ جَامِعَةِ «عَلِيْ غَرَّه» وَهُوَ مِنْ أَشَدِّ أَنْصَارِ تَعْمِيدِ النِّسَاءِ فِي التُّرْبُوِي عِنْدَ مُسْلِمِي الْهِنْدِ. وَكَانَ شَعْرُ «مِيرْزَا قَلِيْبْ بِيك» وَنُظْمُهُ مِثْلَ جَمْعِهَا كَذَلِكَ إِلَى هَذَا الْمَقْدَفِ الْأَسْمَى وَهُوَ التَّرْبِيَةُ الرَّجَالِيَّةُ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ فِي السَّنَدِ.

وَقَدْ حَازَتْ مَسْأَلَةُ تَرْبِيَةِ النِّسَاءِ فِي حَرَكَةِ الْإِصْلَاحِ أَمِيَّةٌ فَوْقِيَّةٌ، وَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ أَدِينَا الشَّدِيدَ الْبَاسِ أَلْفَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بَعْضُ الْمَوَاقِفَاتِ. كَانَ الْمُسْلِمُونَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْهِنْدِ قَدْ دُونُوا كُتُبًا وَمَقَالَاتٍ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ مِنْذُ سِنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ، مِنْهَا «مَجْلِسُ النِّسَاءِ» لِمَوْلَانِهِ «أَلَطَافُ حَسِينِ حَالِي» الصَّدِيقِ الصَّادِقِ لَسَيِّدِ سَيِّدِ أَحْمَدُ خَانِ السَّابِقِ ذَكَرَهُ وَالشَّاعِرُ الَّذِي تَرَنَّمَ أَجْمَلَ تَرْنَمِ «بَالِدِ وَابْخُزَرُ فِي تَارِيخِ مَلِكِ الْمُسْلِمِينَ» وَقَدْ أُرْسِيتِ الْحُكُومَةُ اسْتِخْلَافَ كِتَابِ «مَجْلِسِ النِّسَاءِ» فِي مَكَاتِبِ الْبَنَاتِ النَّادِيَةِ مِنْذُ عَامِ ١٨٧٤. ثُمَّ أَنَّ وَنَزَّرَ أَحْمَدَ (١٨٤١-١٩١٦) وَهُوَ أَخْصَصَانِي بِالْحَقِيقِ وَالشَّرِيعَةِ وَمُتَرْجِمِ ذُو شِئْرَةٍ فِي الْهِنْدِ، قَامَ بِنَشْرِ رِسَالَتِهِ التُّرْبُوِيَّةِ فِيهَا الْكُتَابُ الْمَشْهُورُ «مَرْأَةُ الْعُرْسِ» وَهِيَ قِصَّةُ أُخْتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا جَهْلِيَّةٌ كَسُولَةٌ يَبْنِي الْأُخْرَى مِثَالًا لِلْفَضَائِلِ كُلِّهَا، تَلَمَّطَتِ الْكَاتِبَةَ وَالْقِرَاءَةَ وَخْتَلَفَ الْعِلْمَ وَالْفَنِّينَ حَتَّى الْحَيَاكَةِ، وَلِذَلِكَ صَارَتْ مَتَبَعًا لِمَعَادَةِ عَائِلَتِهَا، حَتَّى

أوزاهد من الهنود، ذوقية بحرية أو ما شابه ذلك من الأمور الخيالية التي يتقبلها القراء.. أما ميرزا قليچ بيك فقد تبع أسلوب «نذير أحمد» الأديب الواقعى إلى حد ما، وإن لم يدخل على قصصه الجن والساحرات فقد كان لا يستطيع أن يتجنب وصف بعض الأحوال المنافية للواقع في رأى القارئ المحدث.. ومع ذلك فإن جسارة المؤلف تستحوذ على إعجابنا لأسباب وأنه أعطى صورة المرأة المثلى في قصته التي نلخصها فيما يلي:



ويفتخر بأن حكاياته لا تخفى إلا على وثائق مستمدة من الحياة وأخذت على ما هي عليه، ولا يرد فيها ذكر جن أو غفاريات أو ساحرات» كما كانت العادة في القصص الأدبية المنظومة حتى في القرن التاسع عشر في بعض الحكايات المنشورة في الهند. وقلنا نقراً حكاية من هذه الحكايات الطويلة إلا نجد فيها على الفور امرأة من الجن أو بنتاً لملك الجن، أو درويشاً غريب الأطوار «صاحب التصرف وذا همه» تقوم على خدمته مخلوقات غير بشرية،

#### قصّة «زينت» الفتاة الخالية.

يسوقنا المؤلف إلى بيت قديم من بيوت مدينة حيدرآباد بالسند، تقم فيه ثلاث نساء لإحادهن زينت الفتاة، والثانية أمها، ثم الخادمة المعجزة الوفية. أما زينت فتبلغ من العمر أربعة عشر ربيعاً، وتقرأ القرآن الكريم بينما تتحدث والدتها الخادمة السمراء. وهم يكون الحديث بين امرأتين سوى عن الخطبة والزواج؟.. فإن واحداً من الزبراء التجار قد بحث بسلاسل ملية بالفاكهة والثمار المنتقاة وبمختلف الهدايا طالبا يد «زينت»؛ غير أن أمها لا تستحسن هذا الطالب إذ لا تريد أن تزوج ابنتها لرجل كثير المال، وما هي تقول:

«سيفضحك الناس في وجوهنا إن عقدنا عقداً بسبب المال وسواون الدرهم، أو نجهدهم سيقولون 'إذا مات البعل باعت الأرملة أطفالها'»

أما المخاطب الثاني فلا يميل إليه الوالدة لأنه يميل مع كثرة

ماله، ثم انه سبق ان تزوج بأخرى -- «وما أشنع تعدد الأزواج!» ولو كان الأمر في زيادة أم زينت لرجحت الفتاة ابن عمها أو أحد الأقرباء على ما جرت عليه العادة... هذا هو الباب الافتتاحي، وهو مكتوب بأسلوب جزل سلس يدخل القارئ من الوهلة الأولى في جو أسرة من أسر الطبقات الوسطى في القرن التاسع عشر. ثم أن المؤلف يصف لنا المائتين اللتين تتورحهما القصّة:

أما زينت فابنة المرحوم «سرى فتح خان» الذي كان صديقاً لآخر الأمراء من سلالة «تالپور»، وكانت هذه السلالة حاكمة في منطقة السند منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى أن فتح الانجليز السند عام ١٨٤٣ وحكروا عليها بالجزل والنقي.. أما والد «زينت» فحصل على معاش تقاعدي صغير من الحكومة الجديدة ولكنه امتنع عن الدخول في خدمة الانجليز. «وكان أكثر ذكاً عما في عامة قومه» كما استدلل المؤلف على العوازل التالية:

«تزوج بـزوجة واحدة فقط ولذلك أمن من القتل والقاذل في حريمه فضلا عن المنازعات البتية، وكان خرجة صغيراً...»

ولم يكن له سوى ولدين. أدخل أحدهما ويدعى «حامد» على المدرسة الإنجليزية حيث تعلم السندية أولاً، ثم الإنجليزية (فقد صارت الإنجليزية لسان التدريس الثانى والعالى والمكاتب الرسمية في الهند منذ عام ١٨٣٥ عوضاً عن الفارسية التي كانت اللغة الرسمية عند المسلمين في الهند لمدة ثمانية قرون). زد على هذا أن «سراى فتح خان» علم ابنته «زينت» القراءة والكتابة حتى تمكنت من تلاوة القرآن وقراءة الكتب الدينية، كما أنه أعطاها دروساً في اللغة الفارسية.. وكان من الطبيعي أن يضحك منه أقرابوه وأن يهيجوه وعائلته قائلين:

«يا لها من حاقلة! فأى فائدة تجنى من تعلم الكتابة لفئة حسنة، بل والفارسية أيضاً؟»

ولإن نظراً الى نسبة الأيمن المرتفعة في منطقة السند حتى يومنا هذا ولا سيما بين النساء السنديات، لهنما بلغ تقدم المؤلف وقوة إيمانه بضرورة النهضة التعليمية، ونرى كذلك كيف تنفق البطالة لدى النساء السنديات اللواتي ربن على النهج المعتن - ثم توفى والد «زينت»، وما أصعب الأمر على أرملة فقيرة أن ترتزق وتربي أطفالها! وإذ بالحاجة السمرات تنصرف كثيراً الى بيوت الاغنياء لتأوى بالملايس والاقمشة الى صاحباتها كي تقوم برفيها وكياها. ومع ذلك لا ينقطع اخو «زينت»، «حامد على»، عن دوسه في المدرسة الإنجليزية.

وفي المدرسة يصاحب فتى حميد السيرة يدعى «على رضا» وهو يكره بوضوح سنوات. وكان جد ذلك الفتى رئيس قبيلة تركية في جبال الغرب (ومن السهل ان نكتشف نسبة هذه السلالة الى عائلة المؤلف نفسه الذى كان من أتراك الفقفاق) وقد استشهد أثناء حرب دارت بين روسيا وإيران (ولعل المؤلف يقصد الحرب التي وقعت في جرجستان عام ١٨١٢) وانتحرت زوجته بعد وفاته، فبيع ابنه «على نواز» عبداً، ثم أحضره أحد أربابه بعد مدة، فابث أن صار تاجراً في منطقة خراسان، وبينما هو في أحد أسفاره لشئون التجارة بلغ السند وعقد هناك زيجته على فتاة أصيلة من أسرة سندية، وكان ولدهما الوحيد يدرس في المكتب الذى يدرس فيه أخو «زينت». وبعد مدة توفى التاجر «على نواز» وتولى الفتى مكانه في إدارة شئون التجارة. وكان من الطبيعي أن رغب أمه في تزويجه بأسرع ما يمكن (وكانت الفتيات السنديات

يتزوجن في ذلك العهد ولا تريد اعمارهن عن العاشرة حتى الرابعة عشرة!)). ولكن «على رضا» الفاتن عارض أمه قائلاً:

«إن تزوج المرء في سن مبكرة يجعل الخلف وهنا ضعيفاً في معظم الأحوال كما أن الزواج المبكر يكون سبباً في ضعف الولدين حتى أنه سرعان ما تلحق بهما الشيخوخة! زد على هذا أن «على رضا» لا يريد زوجة تختارها له أمه إنما يريد أن يشاهدها قبل النكاح - وهو ما لم يسمع به إنسان! بل والأغرب من ذلك: يريد زوجة تجيد القراءة والكتابة!!! فتجيبه أمه:

«وأما القراءة والكتابة فليس من عادات بنات النبلاء هناك! ويطول الجدل بينهما إلى أن يلبس على لسان أحدهما اسم «زينت»؛ وكان على رضا قد رآها مرة أثناء زيارته لصديقه «حامد على» في داره...

أما زينت فقد عاينت السلالة المليئة بالهدايا، وما أن أنبأها بالحاجة بمن تقدموا لطلب يدها حتى اشتعل غضبها وقالت:

«إيسرى أن ابتلع الزهر من أن أتزوج واحداً منهما!»

وفي تلك اللحظة يدخل أخوها عليان في الغرفة ويخبرهن بأن أم «على رضا» تقصد زيارته في اليوم التالى. وتسرع أم «زينت» لذلك «لأنها قد رأت في منامها زوجها المرحوم، وأحست أن الأمور ستصبح على أحسن ما يرام..» وفي الصباح التالى إذ بالولدة «على رضا» ومعها خادماتها تحضر لزيارة أم «زينت»، ولأنها لن «الأترك» ويجوز لها الخروج من دارها، مستترة بالبرقع، أما السيدات السنديات الأصيلات فما يخرجن قط بعد نكاحهن. وحل القارئ يتوقع أن ولادة «على رضا» سوف تستحسن ذكاء «زينت» ومواهبها الكثيرة وتعجب بمهارتها في الحياكة والملمام بأمر التدبير المنزلى، ثم تزداد حيرة وعجبا عندما تقرأ الفتاة القرآن وتحدث عما طالعته في الكتب التي تولدت على قراءتها.. فقله الحمد، فقد عثرت السيدة على ضالتها: زوجة مثالية لولدها المحبوب!

وحدد يوم النكاح، فأبى «على رضا» وأخو «زينت» أن يبدل المال الفائق في أعداد العرس ورفضاً دعوة المألفين من الناس وإنما اقتصر على ذوى العروسين من كلتي الأسرتين.. (وهو فكر حديث في قصة «قليل بيك» المصطلح الاجتماعي: إذ أنه من المعلوم أن الأسرى الهند والباكستان كانت تنفق المئات والآلاف من الروبيات من أجل إقامة عرس حافل ولو أدى ذلك إلى إستدانة

ما يفوق طاقته من المال بطلاقات، أولاً رهنما ما شاموا من الأرض والأثاث .. وكانت إحدى أهداف إجماعات النسائية الباكستانية الحد من بذل كل هذه الأموال في الأعراس - وهو ما قصد إليه مؤلفنا السدي منذ ٨٠ سنة (١)

أصبحت الزيجة في غاية السعادة، ويولأن «زينت» كانت امرأة نشطة، ماهرة في تدبير المنزل والمخاضية (رواته أن كل خولص كل امرأة مثالية في قصص الهند التريوية أن تجيد الحساب المنزلي كي لا تخربها خادمة أو غاسلة أو بائع خضر...) حتى أنها لا تتفق كل ما يعطيها زوجها بل تقتصد قمياً منه وتودعه في أحد المصارف .. هذا، وهي مسلمة صالحة! كيف تترامى لها هذه الفكرة والبنك مؤسسة غير إسلامية، يديرها أجانب وهنود وتأخذ بالرفي الذي نهي عنه القرآن؟ ومعلوم أن عهدي الإسلام في باكستان قد عملوا فكرهم طويلاً في مسألة استخدام البنك وإلى أي حد يفتق ذلك والشريعة الإسلامية، ولأن محمد عبده قد أفتى بإجازة التعامل مع المصارف. فهاذا تقول «زينت» العاقلة في هذه المسألة؟

ومع أن بعض الشبهات الدينية قد شغلت قلبها من جراء تحصيل أرباح من البنك إلا أنها بعد أن تملت الأمر قالت لنفسها: «في مقدوري ألا أحصل أرباحاً على أموالى أو إذا ما حصلت فلا أنفقها على نفسي وإنما في سبيل غير ديني، أو أن أبذلها هدية لأحد...»

وكان «علي رضا» كلما عاد من المتجر كل مساء يجالس «زينت» ويلبثها دروساً في الإنجليزية والتاريخ والجغرافيا (ولأن الجغرافيا لمى عند المصلحين المحدثين في الهند أشد العلوم فائدة للنساء كما تبين ذلك من تصفح الكتب المؤلفة حول هذا الموضوع، وأيضاً في بعض ملاحظات ومحمد أقبال). ذلك أن التعرف على البلدان الأجنبية وأهلها ومعادتهم يفتح آفاقاً جديدة أمام أولئك النساء اللاتي ما رأين في السالف سوى جدران غرفهن أو حيضات دورهن على الأظلم). ويتباحث الزوجان فيما قرأته «زينت» من كتب حتى ينطرقان إلى تبادل المبارآت المذنبية الرقيقة وهو ما يخالف التقاليد السندية، إذ على الزوجة أن تخاطب بعلمها بالفتاوى الاحترام، لا كلمات الحب ...

وفي ذات يوم يقرأ الزوجان سوياً كتاباً بالأردية بالعاج موضوع عزل النساء عن الرجال ويوصون خلف الحجاب (ولأن كلمة «برده» الفارسية، أي «حجاب» في اللغات غير العربية تعني كذلك النظام الاجتماعي الذي يحرم على النساء الاشتراك في حياة المجتمع أو مجرد الخروج من بيوتهن،

حتى صارت كلمة «برده» تعني في الأردية «الحجاب» و«الحريم» معاً). وإن كان «علي رضا» يخالف عادة الحجاب ويود أن لا تسجن المرأة وراء جدار «الحريم» بل أن تخرج وترى الدنيا فإن «زينت» لا تنفك مدافعة عن النظام التقليدي. ويقص «علي رضا» على زوجته أن النساء في سائر الممالك (ويريد الممالك الإسلامية) يخرجن إلى السوق وإن كان بالحجاب أو البرقع. فترد عليه بقولها:

«ولئن الفارق إذن بين الحجاب والرى (ومعنى الكلمة السندية أيضاً «علم الحياء»؟) فإن المرأة تستر بستر معين في ولاية وبستر آخر في ولاية أخرى، كما يقول المثل اللباس من شيمة المملكة.»

فيجيبها زوجها: «هذا صحيح، أما الحجاب الذي اعتبه ليس كذلك. إنما عليك أن تفهمي أنه لا يوجد أي فارق بين الحجاب والتجوير، بين الحرم والسجن!»

«يا الولد، لما تقول يا عزيزي وسيدى، فهو إدهام بالغ الغلظة! لا تقل أن لا فارق بين الحائضين لأن لكل منهما حجاب كثيف وجدران مميكة لا يخرج من أى منهما. لكنه من الشرف أن تجلس وراء أحدهما، ومن العيب أن تقبع خلف الآخر!»

«يا زينتا، يا حبيبتي، أتت الآن غير محقة أبداً في ادعائك. أو هل تظنين أن النساء على خير لأمن يمشن في ذلك السجن المسمى بالحرملك؟»

«أظنه حقاً كذلك بل وحتى إن لم يكن خيراً فما هو بشر.»

ويعد أن يطول السجال يقول «علي رضا»: «واظن أن النساء الساكنت في داخل هذا السجن لسن بأقل طمع ولا هوى عن الأخرجات اللواتي بعض خارج الجدران. كل ما هنالك أنهن لا يستطعن الخروج ومشاهدة المناظر الطبيعية والنظر إلى جبال الدنيا وعجائب المخلوقات..» أما «زينت» فلا تأثر بوضعه حجاب العالم لها وتجيبه: «يا حبيبتي المحترم، قل لي، لماذا أشاهد كل ذلك؟» «لا تقول ذلك، يا حبيبتي، إن الدنيا دار العجائب، عمل إلهي ملي بالمعجزات...»

ولما أعرضت «زينت» عن قبول دلائله وبراهينه البينة أخذ «علي رضا» يوضح نقطة أخرى لها، وهي أنه حتى النساء يخافن أن ينهن عقوبن ويضللن أذهانهن في حق لا يقين في حيل الوسواس الخناس الذي وقعت فيه أمنا حواء عليها السلام .. وتجيبه «زينت» العاقلة قائلة: «ذلك هذا قوى، لا غبار عليه، ولكننا نعلم من الكتب

ملا أنهم أسوأ جمعية المسرح المرة الأولى في تاريخ الهند، وكانت تساوهم مثقفات يشاركن في أمور المجتمع وإصلاح المدارس والمستشفيات ولم يرتدين البرقع عند خروجهن الى السوق أو إتيادهن المحافل. أما «زيت»، الزوجة الثالثة بنت خمس عشرة ربيعاً فلا تصفى أذنها لهذا القول بل تصر بحية:

«مهما أجدت القول، فليس لنا سوى الشرع بالحجاب، وعلينا أن نطيع!»

وتم، الحق معك ولكن الحجاب، حسباً قرأت أنا في الكتب الدينية حول هذه المسألة لا يعنى القيد والاعتقال على ما جرت عليه العادة في هذه المملكة، فعندى أن الحجاب الأكبر للمرأة هو زوجها — على ما يرمز القرآن الكريم إليه، بمعنى إن تفعل المرأة ما لا يستحسن بعلمها أو أن تقدم على أمر دين موافقة زوجها فقل أنها قد «زنت الحجاب».

ومثل أن تود أن تذهب النساء الى السوق كنساء الأجانب (المدامات) ويتلذذن بصحبة الرجال الغريباء ويرقصن معهم؟ وكلا، لست أريد ذلك، ولكنى اظن أنه من غير المعقول أن نحبس النساء في دورهن ونمنعنهن من كل حركة... وعندى أن هذا الجدال بين الزوج الجديد والزوجة التى تفضل الموروث من العادات هو أهم ما في قصة «ميرزا قليچ بيك» لأنه يمتدح على مختلف الآراء حول تحرير النساء في بلاد الإسلام وبخاصة في الهند في تلك الفترة. ويمكنك أن تتصور أحداث القصة بعد ذلك وإن ابتعدت، أحياناً، عن الواقعية، وإليك ما ابتدع المؤلف من غريب الأحوال وعجيب الأحداث:

الدينية أن بعض الأمور والأعمال موقوفة على الرجال والبعض الآخر على النساء... فاقه قسم الأعمال على الناس على قدر وسعهم، فأمر الرجال أن يديروا العالم، أن يجاربوا ويقاوموا الأعداء، وأن يكسبوا المعاش ويرتقوا ويستغلوا بأعمال الدنيا. أما النساء فلهن أمور الدار وخدمة الرجال عند عودتهم من عملهم، وأن يلدن الأولاد ويقمن على تربيتهم — هذا واجب النساء وهذه أماتهن...»

«حقاً ما تقررين، ولكن ما عנית يوماً مسألة العقل والإحسان، وإن كانت كلتا الحالتان لازمتين أيضاً للرجال فيها لازمتين بالمثل للنساء. انظري الى الإنجليز: إن نساءهم لسن بأقل عقلاً من رجالهم... تجدين والمندام منهم تجلس في محبة أربعين رجلاً دين أدنى خجل وإنهن لينظرن الرجال مهارة في الحديث وفطنة... أما سيداتنا فلا يشاهدن من وراء الجدار وجه أحد من الناس ولان صادفن إنساناً غريباً لما استطعن أن يلفظن بلفظة واحدة أو ينيسن بحرف واحد بل يصرن غريقات في عرق الانفعال والحيرة والحياء...»

وبعد أن تعمق وحل رضاه وصف الدنيا وأسهب في إيضاح مزاياها أجهت «زيت»: «والأ تخاف أن تفسد النساء عند خروجهن من البيت؟»

ويجيبها زوجها بالسلب، مدلاً على قوله بمثل المرأة الهارسية التى تخرج الى السوق منذ مدة طويلة (وكان أعضاء الطائفة الصغيرة المسماة بطائفة الهارسيين وهم الزردشتيين المهاجرين الى الهند من ايران قد اشتهروا بقيادتهم للحركات التجديدية في بومباي وكراشى وإن لم ايد الطولى في تطور الثقافة والفنون في الهند، من ذلك



بعد أن يتم «على رضا» ستة شهور في مسقط رأسه حيدرآباد يرسل في صحة مأمور انجليزى الى بوباي (وكانت إدارة منطقة السند معلقة ببوباي منذ ١٨٤٧ حتى عام ١٩٣٥). فسرعان ما تمجيه الحياة في هذه العاصمة الماثلة وأنه ليكتب الى «زينت» يدعوه وأمه وخادمتها الى بوباي. ويبدو أن «زينت» قد أصغت لنصائح زوجها فهي ما تأخذ معها السيدتين المعجوزين وتساغر معهما بالسكة الحديدية من مرسة «كوتري» الى كراتشى (ونفهم من هذه الإشارة أن القصة قد دارت حولى عام ١٨٥٩ إذ كان الانجليز قد اقاموا هذه السكة الحديدية على الشاطئ الغربى للإنديس عام ١٨٥٧). ويسافرون من مرسة كراتشى بالسفينة الى بوباي؛ وبعد يوم أو اثنين يطرحن براقهن بعيدا عن عيانهن (١) ويصاحبن السيدات الزاحلات الى العاصمة. وذات ليلة تشعر «زينت» بالملحش وبينما تبحث عن الماء تتزلزل في الظلمة فوق خشبة غير ثابتة تسقط بها في البحر المواج دون أن يحس بها أحد من المسافرين، فما أن يجرى الصباح حتى تفقد المعجوزان الأمل في العثور عليها ويندين عليها ويمكن شربكاه.

اما «زينت» المسكينة فلا تنفك ممسكة بالخشبة — تكرر كلمة الشهادة الى أن تلى بها الأمواج الى ساحل منطقة «كيج» حيث يجدها أحد السياكين ويأخذها الى داره، وهناك تدرس القرآن والحديث الشريف لأولاد رئيس السياكين (وإن لمحة «كيج» Kuech قرية من السندية). ثم، أعانتها السياكين بعد مدة على زيارة المدينة القريبة التي تقع فيها أخت أحدهم. ولكنها صادفت في الطريق، وسط ألفاظات المهلكة، لصوصا من قطاع الطريق، يسلبونها ما كان معها من قليل الجواهر ويحبسونها في بيت رئيسهم. لكن عائلة هذا الص صدمتها خلسة على الطريق الى المدينة، وبعد عديد من الوقائع تعزل، أخيرا، الى المدينة وتسل أحد رجال البليس عن الطريق؛ ولكنه يقودها الى دار ضابطه، «الفوجدار» المشهور بفسقه وخلاعته، أملا أن تكون هذه الهدية اللطيفة بابا يجلب عليه رضا ضابطه... ولا تلت «زينت» أن تنغم غايه الفوجدار الظلم وتمكن الحرب من باب مطبخه وأخيرا تجد بيت العائلة السندية التي قصبتها، وتدرس ابناتها حتى تلد ولدا بعد اسابيع (ولم يذكر المؤلف قبل ذلك أن المرأة المسكينة كانت حاملا في ابتلاء سفرها الذى أبتليت فيه بشئ البلاء!).

تكتب «زينت» الى زوجها ولى أختها، لكن زوجها كان

قد انتقل الى دار أخرى في حى آخر من العاصمة فلا تبلغه رسائلها. اما الرسائل التي بشت بها الى أختها فقد نست أن تدلن على مظهرها كلمة «السند» فانتقلت الى حيدرآباد في ولاية «دكان» بمنزلة الهند.

وتعمل «زينت» لمدة عام عند عائلة تاجر ذى مال، وأخيرا تسافر الى بوباي. وعندما تبلغ العاصمة يتركها سائس الحرية في حى غريب لا تعرف فيه أحدا ولا يعرفها أحد، كما أنه ليس لديها ما يثبت شخصيتها ولا جواز سفر... ومن ثم كان من السهل أن ينهبها بعض المارة بأنها سارقة كذابة فلا تمكن من تكذيبهم، وهكذا توضع في السجن لمدة شهر. ثم تواصل بعدها البحث عن أمرتها، وتخدم عند امرأة تاجرة في الحى الذى كان يقطنه زوجها من قبل. ثم تعرض عليها سيدة أخرى مقاما خيرا من ذلك عند عائلة نبيلة — وإذ بها عائلة «على رضا» زوجها...

فقد مضت سنتان منذ أن فقدت «زينت»؛ وبعد مرور فترة الحزن تزوج «على رضا» مرة أخرى بنت أصيلة تجيد القراءة والكتابة، وقد ولدت له بنتا... فإذا فعل «زينت» القطة في هذا الموقف غير المنتظر؟ إنها تسمى نفسها في الحال «زينب» بإلباء عرضا عن التاء، ولا تتكلم إلا بالآريدي ولا تفضى سر هويتها لأحد. (وإن كان القارئ الصابر ليتساءل: كيف يمكن لزوجها ألا يعرف صوتها أو تلفظها السندى للآريدي، وكيف لا تسألها عنويتها من أين أتت؟ وما هو أصل عائلتها؟ ومن كان زوجها وأبا ولدها؟ فضلا عن مئات الأسئلة الأخرى التي تدور في أثناء حديث النساء والخدم، وأظن أن المؤلف — وهو رجل — لا يتخيل مبلغ أهمية هذه الاستفسارات عند معشر النساء!).

وتنص «زينب/ زينت» بأعمال الدار على أحسن ما يرام، ثم يتصادف أن تصاب زوجة «على رضا» بسقط الجنين وهي حامل فتيقها القدر. وكان من الطبيعى أن تسأل أم «على رضا» «زينب» بعد مدة أن تعقد الزواج على ابنها. ولما كانت «زينت» على ما تعلم ذات عقل وفطنة، فإنها تتوقع أن الأسرة قد لا تصدق ما وقع لها منذ ثلاث سنوات، فتجلس وتكتب ما حدث لها من مصائب (ولم تكن قد حكى لأحد أنها تعلم الكتابة) وتسلم رسائلها في مظروف الى «على رضا» حتى اذا ما قرأها وعلم أنها «زينت» يحويته «أخذ يقبلها بلاحياء في حضور الآخرين...»

والآن نقصد العائلة العودة الى موطنها، حيدرآباد، ويسر الأقرابا بعودة السيدة «الزينة» ...

ولكن أحوال عائلة «زينة» كانت قد صارت على شر ما يرام! فقد توفيت الخادمة السمراء الصديقة التي كانت تصاحب أمها منذ سنوات طويلة، ولم تجد خادمة مثليها .. وأما «حامد علي» أخو «زينة» فاهتم بالذهب والصيد وأخذ في شرب الخنجان بل وفي استعمال الخشخاش، وأصبح من اهل اللهو وعباس القمار ومصبة النساء غير المحترمات، غير مقبل على الدراسة قط. وأخيرا يعمل في خدمة البوليس، ولا من أجل الشرف بل لأجل المنطق الأحمر الظريف والسيف البراق .. ويتزوج إحدى بنات السوق فلا يلبث به الأمر أن يمين بعض اللصوص على السرقة وهو في لباس رجال الأمن، وتكون نهايته السجن حيث يموت بعد مدة متأثرا بعذاب الأشغال الشاقة. أما أمه الفقيرة فكان قد قضى عليها لإفراط الغم والحزن قبل ذلك بمدة.

هكذا يجد أن مسقط رأسها مهجورا وقد أصبح اعزائمه في عداد الأوتام فيزمان على العودة الى بومباي، وتلد «زينة» بعد عودتها ولدا ثانيا. وهناك يؤسسان مدرسة خاصة ببنات العائلات الثبيلة، وتدرس «زينة» بنفسها الفارسية والأردية والإنجليزية والحياكة، ثم ينشأان مدرسة أخرى لقراءة القرآن والمباحث الدينية. وكلتا إزدادت شهرة المدرسة إزداد «علي رضا» توفيقا واتسع رزقه حتى يصبح الاحتفال السنوي الذي يقام في المدرسة من الميع الأحدثات في حياة المجتمع ليس عند المسلمين وحدهم بل كذلك لدى الوالي البريطاني وكبار أعضاء الجالية الأوربية الذين يحضرون الخلق في صفة زوجاتهم. وتبقى مدة طويلة حتى تتزوج بنت «علي رضا» في حفل كبير يشترك فيه المسلمون والهندو والأوربيون جميعا. ثم يترك «علي رضا» بومباي قاصدا بناداد في خدمة الإنجليز، ومن ثم يسافر بعد مدة الى استانبول حيث يصير وكيلًا للتقصيل البريطاني. أما ولدها فيلرسان العلوم والطب في جامعة لندن. ويصف المؤلف (الذي لم يترك السند للسياحة) مدينة استانبول بأسلوب غريب للغاية، وإليك كلماته القليلة: «إنها مدينة عتيقة شهيرة في العالم لأشياء كثيرة» — وكفى! ولما كان «علي رضا» تركي الاصل فقد اشتاق لزيارة هذا المقام الذي كان مركزا للخلافة الإسلامية. وإنه ليبدأ لتوه بدرس اللغة التركية ولا تقل «زينة» عنه همة في تعلم تلك اللغة ولا الاهتمام بالحضارة العثمانية. حتى أنه قد دار بخلفه أن تؤسس مدرسة على طرز مكتبها في بومباي، ولكن «ماذا صاها أن تدرس

هنا والأتراك ينفرون من الإنجليزية كل النفور؟ وتستفيد من همتها العالية في التربية الإسلامية السيدات الأصيلات اللواتي يزرنها في دارها فتباحث معهن في المسائل الدينية، وهن معجبات بها لأنها تحيد الإنجليزية ... (ولنا لنعلم أن تربية البنات كانت في ذلك العهد، حوالي عام ١٨٨٠، في تركيا أفضل منها في سائر مناطق العالم الإسلامي، إذ لم توجد في الإمبراطورية العثمانية مدارس لتعليم البنات فحسب بل وكانت هنالك أيضا ما تدعى «دار المعلمات» وهي مدارس ثانوية لاعداد المعلمات ..).

لا يلبث «علي رضا» أن يشتد حبه وحبه زوجته للأتراك فيهجّر الإنجليز ويتخذهم السلطان صديقا وتديما. وفي ذات يوم تقع في يديه رسالة مكتوبة بالترميز باسطة عن «فتايل» و«توحيد للثورة». وعندما تدعو إحدى سيدات الخرم السلطاني «زينة» الى منزلها، تعثر السندية الفطنة على ما يشير الى غزن في القصر، وكانت إحدى زوجات السلطان، وهي كريمة الأصيل، قد احضرت مواد الانفجار لقتل سلطاتها وزوجته المختارة ولدهما ولي العهد ... ويتمكن «علي رضا» من الكشف عن تلك المؤامرة بعد خوض كثير من المخاطرات التي لا يكاد أن يصدقها العقل، ويسجن كافة الأكراد العاملين في القصر، ثم يختاره السلطان أميرا كبيرا ويصيح ذا نفوذ خطير في أمور السلطنة.

يؤدى «علي رضا» بعد ذلك فريضة الحج بصحبة عائلته وتلحق الحنية بأمة في المدينة المنورة. فيزور بعد ذلك وطن أجداده، القفقاس. وكان قد انتهى عهد سعده وأقل طالعه متحذرا صوب الغروب، وحن الى الهند بعد أن تزايد حساده من الأتراك، وإن اختار ابنه الصغير الإقامة في استانبول كطبيب ناجح وقد تزوج فتاة تركية جميلة «وجال الأتراك مشهور».

أما ولد «علي رضا» البكر، واسمه «محبوب علي» فقد تزوج بسيدة إنجليزية قبل عودته الى الهند. وعندما يعود الوالدان الى بومباي بعد كل هذه المدة الطويلة يرغبان عن التزول في بيت «محبوب علي» ولأن ولدهما هذا كان يظن: «كنت في ممالك غريبة ورأيت قويا أفضل من هؤلاء القوم وشاهدت نظاما أفضل من هذا النظام ومجتمعا أكثر تطورا، ولذلك فكل ما أفضل أفضل»، وكانت زوجته من نوع «الملامات» اللواتي يعتقدن أن الرجال عباد لمن ويوددن أن يحلمن البعل مسيرا حسب مشيتين ... زد على هذا أن «محبوب علي» كثيرا ما اشترك في مجالس الإنجليز

اصعده الحظ بالزواج من بنت صالحة مسلمة ذات مال وجمال، فراح يلعبها مختلف الفنون ويسعد كل السعادة بجلعها وطاعتها له ...

أما أخوه الصغير فيسافر، ذات يوم، من إستانبول الى بوباي في مهمة زوجته، ثم يزور الوالدان وزوجاهما الوالدتين في حيدرآباد. ويقروان خدمة القرآن على مقبرة ولد وعلى رضا وكذلك على روح أمه ويتابع الأولاد دارا رجة لوعلى رضا وهزينة ويعطونه ألفى روية من حسابهم في البنك. ثم يلتقطون الصور التذكارية للعائلة ... وبعد مدة توفيت «هزينة» وتوفى زوجها الفى بعدها بخمسة أيام ...



ومعاهل الرقص عندهم، وأحياناً ما كان يحضر رجال من الانجليز ليصطحبوا زوجته لفتته او للملاهي ... من جراء تلك الحال المقلوبة فضل وعلى رضا وهزينة أن يقيا في دار صغيرة في بوباي، ثم انتقلا الى حيدرآباد بعد أن قلت أموالهم (ويسأل القارئ الصابر: وكيف صرفا الأموال الغفيرة التي كسبها وعلى رضا في الهند، ثم في تركيا، ولا سيما وأن هزينة كانت حكيمة في الإنفاق كما سبق أن استغلست النيك في أيام شبابها؟) .. ويشهد الخلاف بين ولدهما وزوجه البريطانية حتى أنها تذهب الى المحكمة وتطلب الطلاق منه .. ولكن يصوب على، وإن رد أن يتزوج مرة أخرى باحدى الأجنيات إلا أنه صار يخاف كبرهن ويغف تكبرهن، وفي النهاية

او قبل ذلك بقليل لكانت أقرب الى الحياة منها، ولأمكننا أن نتصور هذه العائلة المتواضعة من أسر الطبقات الوسطى في الهند الإسلامية بكل تفاصيلها. وقد كان الحوار في القسم الأول من الرواية ملياً بالتعابير السلسلة الريفية، والأشخاص، كأم «هزينة» وخادمتها، مثلاً، حيثان وكأنهما مأخوذتان من أى دار في تركيا او في الباكستان. ومع ضعف المبالغة الروائية نقف على مميزات لها أهمية عن الحياة الفكرية عند مسلمى الهند في القرن التاسع عشر حتى ليجلر بنا أن نتمتع بعض الجمل القصيرة والملاحظات العابرة الخفية بين السطور وفي ثنايا القصة.

ومن الغريب أن محمد آقبال، الشاعر والفيلسوف الباكستاني الكبير، صاحب الشعر المهيج للشجون وكتاب في إصلاح الدين وإحياء الحياة الروحية عند المسلمين، لم يدع إلى كل

هذا تلخيص لوقائع القصة التي استغرقت قرابة المائتي صحيفة، وإن قلت: أنها قصة غريبة، لا أجد فيها تحليلاً ميكولوجياً للأشخاص، ثم أن ما حكاها المؤلف بعيد عن الحقيقة بل عن الإمكان، وإن قلت: أن حبكة الرواية غير قوية ولا مؤثرة الى حد كبير لا سيما في القسم الثاني منها، أى منذ أن تبلغ «هزينة» دار زوجها في بوباي، ولتستوى القصة على نقاط كثيرة جديدة بالتقدير، ونظن أن «ميرزا قليچ بيك» في مدينته الصغيرة البعيدة عن عواصف العلم الكبير، كان من وجوه شتى، أقرب الى الفكر المعاصر وأعمق فهما لميمات المجتمع الحديث مما كان عليه بعض زملائه في ميدان الأدب والإصلاح الديني. فلن قسنا قصة «هزينة» بما دون من حكايات حول تربية النساء في حين الزمان



هذا القدر من الحرية للمرأة، ويفرقه في ذلك الأدب السندى القديمة وجسارة، وكان قد ألف حكاياته هذه وعهد لإقبال، في المدرسة الثانوية ...

مع ذلك يسهل علينا القيام بين قصة «ميرزا قليچ بيك» وشرا لإقبال فيها يتعلق بأمر هام هو: دور المرأة الأوربية. وإن التصوير الذي يقدمه لنا «قليچ بيك» لزوجة «عويوب علي» الإنجليزية مأخوذ إلى حد ما من الحياة. فلا شك أن أحوال المرأة الإنجليزية وأطوارها كانت في نظر المسلمين بعيدة كل البعد عن قواعد الأدب ومخالفه لحشمة المرأة المسلمة المستورة الصالحة. وكان الشاعر الكبير «ميرزا غالب» (١٧٩٧-١٨٦٩) الذي سافر من حلي إلى كالكتا عام ١٨٢٨ قد وصف السيدات الإنجليزيات اللواتي يتمشين في شوارع المدينة ويتترهن مع الرجال «كأنهن نسوة من أجن ذوات قلوب من الصخر...» وهكذا صارت «الدماء» المتكبرة غير الطيبة لبعها نغزجا مشهورا في الأدب الهندى، وإن أراد «ميرزا قليچ بيك» للغة المسلمة أن تتعلم علوما مفيدة وأن تدرس اللغات والتاريخ والجغرافيا فكل هذا سبيل إلى الحياة المُنشمة، تمتل بطاعة زوجها فلا تخرج من دارها إلا بأذنه، ولا تنه بما لا يستحسنه من الأشغال والأعمال. وهذه هي الزوجة المثالية التي يستطيع رب البيت أن يحادثها ويتحاور معها في مسائل الدين والدنيا وهي رفيقة له، تشترك في أعماله ومهاته، وترى أولادها على أحسن وجه كما تنه بترية فتيات أخريات كى تمتد محيط المسلمات المنقذات ويزددن عددا وعدة.

ومن الجدير بالذكر أن «زينت» لم تلد سوى ولدين فقط، وكان «علي رضا» الولد الوحيد لأمه، وتعتقد أن المؤلف أراد بذلك حصر العلاقة العائلية في دائرة صغيرة مسالة، إذ يصعب ذلك كلما كبر عدد أفراد الأسرة خاصة من الفتيات. وتتفق نظرة «ميرزا قليچ بيك» في هذا الخصوص وأفكار المصلحين الهنديين وأنصار تحديد النسل - مع أن عائلة المؤلف نفسه اشتملت على أربع عشرة ولدا ...

اما «الدماء» الأوربية فلا زالت المثال المضاد للمسلمة الصالحة، وإن مدح «علي رضا» عقلا وذكاهما وحريةها فا استحسن كبرها وما أس فيها من قببح الخصال حتى أن النساء الأجنبية أتبع سيرة من الرجال، كما قال المؤلف على فم «محبوب علي» بعد طلائه: «نظن أولئك (المدامات) أنهم أنزل من السماء، وأن أولئك الأهالي الوطنيين لا يصلحون إلا للخدمات الدنيا.

وإن ما يظنه الرجال تظنه أولئك النساء مثله أو أضعافه ...» ونصادف تصويرا شهيرا لهذه «الدماء» الغربية في شعر إقبال حيث يصور «أوروبا» في شكل فتاة جميلة تزور، في جهنم، يهوذا الإسخرىبولي الذي خان عيسى بن مريم، ويخطبها يهوذا قائلا أنها هي التي تستحق في الظاهر الحقيقة عذاب النار فهو لم يخن سوى جسم عيسى ولكنها تصلب روح المسيح كل يوم عدة مرات ... وهنا شعر آخر في عين الكاتب الذي يدعى «جاويد نامه» (كتاب الأبدية) يصف فيه الشاعر إقبال هجوم امرأة أوربية على فلك المريع، لا سبأ وأنها إحدى راندالت حركة تحرير النساء بالقوة، وهما هي تخاطب نساء هذا الفلك الساكن داعية إياهن للجهاد ضد الرجال وتأسيس حكم النساء ... وهي، على حد قول «إقبال» تنتمى إلى نوع من الشياطين ...

ويوجد هذا التضاد بين المرأة الغربية والمرأة الشرقية في أكثر الحكايات الهندية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى. حتى أننا نشاهد هذا التضاد في بعض المنتميات من عهد الغول في الهند - أى في القرن السابع عشر - حيث تصور فيها امرأة غربية «فرنكية» - بأسلوب غريب مستعين.

اما الجانب الآخر الذي يجلب اهتمام القارئ فهو تصوير دور الأتراك. إذ كانت المناسبات التاريخية بين الهند وممالك الأتراك قديمة جدا، ومن المعلوم أن أكثر الجيوش التي زلت بلاد الهند من جبال أفغانستان كانت تتألف من أتراك آسيا الوسطى حتى أن كلمة «تورك» في بعض لهجات الهند صارت تضاهى «مسلم»، وذلك أثناء القرن الوسطى. أما في الشعر فيمثل التركي الأبيض الوجه الحسن المحبوب جبال الدين الإسلامى وجلاله، وصار الهندي الأسود القبيح مثالا للكفر وأهل جهنم ... وعندما فتح «بابر» حفيد تيمور الهند الثالية عام ١٥٢٦ وأسس الأمبراطورية المغولية هناك، وكان قد ألف سيرة حياته بالتركية، كما كان بعض أمراءه يكتبون أشعارهم بلغة أجدادهم وما زالت التركية معروفة عند عدد لا يستهان به من النبلاء في الهند حتى أواخر القرن الثامن عشر.

وفي القرن التاسع عشر، بعد استيلاء بريطانيا على مناطق الهند، وجه مسلمو الهند أسلهم إلى الدولة العثمانية خاصة وأن مكة والمدينة كانت آنذاك تحت حكم الأتراك كما اعتبر بعضهم السلطان العثماني «الخليفة» الحقيقي وأمر المؤمنين، وإن هذا الحب العميق للأتراك هو السبب في إدخال حكاية رحيل «زينت» إلى استانبول في قصة «قليچ بيك».

وصار «حسن علي أفندي» قنصلا تركيا في كراتشي عام ١٨٨٩، ولا شك أن فعاليته في ميدان التربية قد أثرت في «ميرزا قليچ بيك» الذي رأى فيه خير ممثل للعلاقات السندية-التركية وكان صديق لهما، اسمه «الله بخش أبوجاه» هو أول مؤسس لمكتب بنات في السند في تلك السنوات.

وإن اطلعنا على قصة «زينت» في هذا الضوء لوجدناها جديرة بالتحليل، ونعتقد أنه يليق بمولفها أن نفقد عليه الثناء — ولو أنه كتب بالعربية، أو حتى بالأردية، لكننا عددناه من بين الأدباء المحدثين المصلحين الكبار، وواحدا من مبشرى عصر جديد للبنات المسلمات، ومربيا لقومه، قومه الذين يقطنون المنطقة التي فتحتها العرب المسلمون سنة ٧١١م، والتي ما زالت تفتخر بميراثها العربي وتاريخها الإسلامي.

وليس من دواعي التعمق في تاريخ العلاقات بين مسلمي الهند والأتراك بعد ذلك، ويمكن أن نذكر «حركة الخلافة» بعد الحرب العالمية الأولى وما قاله «محمد إقبال» في الأتراك وفي أتاتورك، إلى غير ذلك من الأحداث السياسية وتجديد المشاركة الاقتصادية والعلمية في عصرنا الحاضر.

واعتقد أن بعض التفاصيل في قصة «زينت» قد استلهمت عن شخصية معروفة لدى أدباء السند في القرن التاسع عشر، وهي شخصية «حسن علي أفندي» أحد أصدقاء «سير سيد أحمد خان» السابق ذكره، أول المصلحين المسلمين في الهند، وكان كذلك صديقا ل«سيد أمير علي» الأديب المجدد. أسس «حسن علي أفندي» مدرسة خاصة في كراتشي وهي «مسند مدرسة الإسلام» التي درس فيها مدة من الزمان «محمد علي جناح» القائد الأعظم للباكستان.

الرسم المنشورة في ص ٣٩ وص ٤٦ وص ٤٥ مأسوة بالحجم الطبيعي عن أصولها من كتاب: T. Postans, Personal Observations on Sindh, London 1843



ميرزا قليچ بيك. نشكر مائلته لوضع صورته تحت تصرفنا. كما نقدم الشكر للعلماء ديانا أگرو ومحمد راباد علي خير معونته.

# أحمد أمين

## وابتاع الأستاذ الامام محمد عبده

بقلم د طلف خالد

تحفز ودعا وسلاحاً في يد رواد الحركة التجديدية والمفكرين الاجتماعيين والسياسيين مثل قاسم أمين صاحب كتاب تحرير المرأة. إذ كانوا يستغلون اسم الامام سنداً لأرائهم مكسيين بذلك لإقبال الناس على مبادئهم الحديثة التي لم يستغها الناس من قبل.

أما العلماء الذين تخرجوا في الأزهر، ومنهم من أصبح - فيما بعد - من زعماء الحركة العقلية الثورية كعلي عبد الرزاق، وخالد محمد خالد، فانهم يهدفون الى تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف تفسيراً أكثر حرية - وكان هنالك علماء تميزوا بمحافظتهم في علوم القرآن والحديث فهم محمد رشيد رضا وعبد الغزالي، فكان هؤلاء العلماء المحافظون يستغلون آراء الأستاذ الامام في صالح التقليد، ويقال أنه من حق كل الفتيين التابعين للأستاذ الامام أن يستغل اسم الامام لأن آرائه يمكن أن تكون طيبة للتفسير على هوى كلا التيارين: المحافظ والتحرري، ممكنة الاستخدام في خدمة كل من أهدافها.

وإنه لواقع تاريخي وأساسى بالنسبة للتاريخ الديني وتفهمه أن المادة الواحدة تبنى معاني مختلفة على اختلاف الناس، فلا غروا إذن أن تبين تفسير الأنظمة الدينية على مر العصور مدامات حية ولا تفقد تأثيرها على الناس. وعلى الرغم من ذلك فإن الصراع بين الخناجين المعارضين بعضهما بعضاً - وكان الصراع يبلغ أحياناً أشده عنفاً وحاسماً - يثير في انفسنا سؤالاً له أهمية للغاية ألا وهو هل يمكن أن نخط أفكار الأستاذ الامام عبده الى درجة تمتشى معها مطالب كلتا الفتيين حتى يتباح لنا أن نقول إنه يضمن الحفاظ على تراثه بصورة مستمرة، ويرى ذلك جميع المفكرين الكبار على وجه التقريب. ومن أبرز أصحاب هذا الرأي ماكس هورتن Horta وشارل آدمس Adams وهاملتون جب Gibb وفضل الرحمان Fazlur Rahman وماكسوم كير Kerr و.م.م. مزيد (ويجدر بي أن أذكر هنا أن هذه الدراسة تقتل

الخلاف بين أتباع الأستاذ الامام محمد عبده

يقول المستشرق ماكوم كير Malcolm Kerr أننا لا نجد في مصر من لا ينهض على تراث الأستاذ الامام محمد عبده بل نجد كثيراً أن العلماء يصدون أن التراث يعود اليهم دون غيرهم، ذلك أن الجهود الباعية لا تطلق الفكر الاسلامي تعتبر بصورة عامة نقطة البداية لانطلاق الفكر الاسلامي الجديد في مصر إذ أنه قام بتمهيد الطريق الذي أدى الى هدم التقليد الاعى أو النظرية التي تدعو الى التمسك بما جاء به السلف، فقد دعا الأستاذ الامام دعوة ملحة الى فتح باب الاجتهاد من جديد. وأدى ذلك الى بث مبدأ التفكير الحر.

على أن الأستاذ لا يكن في وضع يتيح أن يجد حلولاً واضحة وسديدة لكثير من المسائل العاجلة التي تواجه العصر الجديد؛ فإن بعض أقواله يحيط به الغموض في كثير من الاحيان وهو ما أدى ببعض أتباعه من المصلحين الى تطوير بعض افكاره الى مواقف ربما تخرج عن أهدافه - ومن ناحية أخرى فإن علميته الحاضرة أدت ببعض أتباعه المحافظين الى بث افكاره بطريقة حرة جعلت افكاره تظهر بمظهر رجعي وإن كان ذلك رد فعل للانحياز الذي امتاز به اتباعه التقدميين كما أسلفنا آنفاً. وفي مقال للمفكر الباكستاني وفضل الرحمان عن أثر التجديد في الاسلام جاء ما يلي: لقد قام مقام تحررية الامام محمد عبده نوع من الجدل الذي يأخذ به السفسطائيين وفي الوقت نفسه زاد على الفحوى السياسى بالنسبة الى الغزى التعليمي والفكري لتعاليم الامام عبده. غير أنا اذا أمعنا النظر في عمرة الآراء التي جاشت بها صدور أشباه العلماء وأنصاف المثقفين في الأزهر فانا نجد أنفسنا مضطرين الى أن نتعرف بعدم وجود شيء يشير الى نجاح الامام عبده وآية ذلك أن أتباع الامام المتحمسين له لم يكونوا مثابقي بمحكم المهنة بل كانوا يتمنون الى طبقة المثقفين يمزج من القديم والجديد، فكانت مؤلفاته مصدر

على عهد ما قبل الثورة والسنوات الثلاث التي تلتها، ومن ثم ما طرأ بعد ذلك من تطورات لايسدرج في هذا المجال). ولنا أن نسأل أيضا أى القسرين المعارضين معارضة واضحة من أتباعه قام بأخذ وسيط أفكاره وأهدافه التي تملو عليها مسحة الغموض في كثير من الأحيان، ثم أن استيلاء فريق دين غيره على تراث الامام يجعل من جنائحه خطورة الاجحاف عليه؟

هذا ونجد أبلي قدورى Kedouri يذلل مجهودا خطيرا في كتابه «الافغانى وعيده» ليجيب على هذا السؤال ولكننا نجده يرجح كفة الميزان نحو فريق التحررية - وقد بنى نظريته على أقوال عبيده الخاصة وما جاء في رسائله الى الافغانى ثم أن ما يعتبره دليلا على التفكير الحر للامام، يبدو ذلك أقل إثارة بالنسبة للباحثين الذين يقولون أن التصوف على اختلاف ألوانه ومسحاته جزء لا يتجزأ من الاسلام، ويعمل الاستاذ قدورى فكرة وحدة الوجود تظهر وكأنها انحراف عن الدين مستدلا على ذلك ببعض الأمثلة التاريخية، - ولكنه ثم يقدم دليلا واحدا على صحة ما ذهب إليه في هذه المسألة، فالحق أن التوفيق بين نظريتي وحدة الوجود ووحدة الشهود كان من أهم ما قام به علم ديني نبه ذكره في العالم كله وأهو الشيخ ولى الله من أجل علماء دلى (الهند) والشيخ عبيد الله السندى الذى بث أفكار الشيخ ولى الله في العالم كله في عصرنا هذا، وإذا وقفنا وقفة تأن وامعان بإزاء أفكار الامام عبيده وأساليب تبويره في ضوء الفكرة الاسلامية الجلية فيها بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر فإن حجة الاستاذ قدورى في اثبات رأيه تذهب بهاء.

كان الامام عبيده يستهدف التجديد في الحركة الفكرية للاسلام بغرض ملء الخليج الحائل بين العلوم التقليدية والحركة العقلية البديدة الوافدة من الخارج. وإذا نظرنا في مؤلفات الامام عبيده التي تمت بصلة الى ما يدعو اليه أتباعه فانا نجد مصطفى عبد الرزاق الذى نقل رسالة الامام الى اللغة الفرنسية يجلو حلو الامام في الحركة التجديدية، فيقول الاستاذان شارل آدمس وهاملتون جب بأن مصطفى عبد الرزاق أحق أتباعه في التجديدية رغم تشبهه بقواعد التقليد الاسلامى وكان الشيخ مصطفى عبد الرزاق يقدح كل عطفه وحيه على الطالب الشاب أحمد أمين (١٨٨٦ الى ١٩٥٤) وكان التلميذ الشاب يختلف الى بيت الشيخ عبد الرزاق حيث كان للثقوفين مجتمعون ويتبادلون الراى في كل صغيرة وكبيرة من الامور التي كانت تطرأ على حياتهم وكان أحمد أمين قد سمع عن

الامام عبيده مرتين عندما كان طالبا يائنا في الازهر ولكنه ألف الامام وانكاره عن طريق الشيخ مصطفى عبد الرزاق. ويرى المستشرق بابر يوهانسن صلة خاصة بين مصطفى عبد الرزاق وأحمد أمين فيما يتعلق بأبضاح الدين، فيقول أن كلا منهما يفسر الدين بتعبيرات تعود أصلا الى البيروالية الاوربية بدلا من أن تكون مصادرها مصطلحات الاسلام.

وقد حدا أحمد أمين حلو الامام عبيده والشيخ مصطفى عبد الرزاق في دراسته للدين. كما يرى طه حسين أنه في امكان الشبان المسلمين المتخرجين في الجامعات الحديثة أن يتابعوا دراساتهم دون خشية المرق من دينهم وإيمانهم . وقد مهد لهم أحمد أمين الطريق السوية فلا بأس عليهم اذا مضوا في دراساتهم دون أن يخافوا أو أن يحزنوا من ناحية عقيدتهم الدينية وهناك مقياس عام لاختيار أحمد أمين خليفة حقا للامام عبيده بين أتباعه المماصرين وذلك لأنه خير مثل للطريق البسيط الذى يدعو اليه الاسلام: كما يقول الباحث اللبناني حسن صعب:

«والذى يتخذ الطريق البسيط يتناول القرآن الكريم بنفسه مكونة من الثقافة الاسلامية الكلاسيكية ولكنها في الوقت نفسه مزعجة بصدام الثقافة الحديثة أو بعقلية مشوبة بالأفكار الكلاسيكية والحديثة معا.

وقد حاول أن يخلو حلو الافغانى والامام عبيده وهما

من قال بأن الاسلام دين عقل». غير أن الطريق البسيط الذى سلكه أحمد أمين لم يكن مصدرة الوحيد الطريق الذى اتخذه مصطفى عبد الرزاق وقد نشأ أحمد أمين في بيئة عسيرة بطريرق محلية تأثرت بعوامل قوية تركت أثرها في تكوين شخصيته فكان مرفقه العقل مبليا على إرادته الحرة ومعضداته الذاتية - وقد دفعته نزعة العقلية الرأية الى عجاوبة الاتجاهات الفكرية المتصارعة في عصر ذلك العهد، ويقول الاستاذ «مزيده» تعليقا على كتابه الأولين «مبادئ الفلسفة» وكتاب الاخلاق: «بأن اتجاه تفكيره قد تكون بتأثير المتجددين البيرواليين من أتباع الامام عبيده، ونمضى فيقول:

«ان عنوان الكتابين ان دل على شئ فانما يدل على أن احمد أمين في نشأته الفكرية في تلك السنوات كان قد تأثر تأثيرا قويا بأفكار احمد لطفى السيد بعد الطيقة المثقفة الجديدة وكان لطفى السيد صديقا حميا للامام عبيده وتسلم قيادة الحركة الفكرية بعده وواصل دوره القيادى في المرحلة الخطيرة التي كانت تمر بها طبقة مصر الحاكمة



أرسكار كوكوشكا، سباق الخيالة في المغرب الأقصى "Fantasia".

أمين ينتهي الى الجيل التالي للامام، ولم يكن أحمد أمين قد تلقى علومه على نفس النهج الذي تعلم به معظم المتحررين في عهده، كما أنه لم يتبع مسلكا واحدا على غرار الأزهريين، وقد نشأ في ظروف مماثلة لظروف الامام محمد عبده في بعض تفاصيلها الهامة وجملتها — لما قاله محمود تيمور على أحمد أمين في مقالته «صورة أحمد أمين» يصدق عن الامام عبده أيضا، إذ يقول: «وإنه من المدهش للغاية أن الرجل الذي نشأ في بيئة عائلية شديدة وترقى بقوة سواعده أصبح من دعاة الفكر الحر والبحث وراء الآفاق الجديدة.

وعلى منوال الامام عبده بذل أحمد أمين مجهودا كبيرا للتوفيق بين النهجين التعليميين وقد كان ذلك أسهل عليه من غيره لانه استفاد من المعاهد الجديدة للعلوم المحافظة التي أقيمت نتيجة للجهود الإصلاحية التي بذلها الامام عبده كما أن أحمد أمين تلقى طرق التفكير الحر لدعاة التحررية بآرائه الى مدرسة القضاء التي أقام فيها مدة خمس عشرة سنة.

تلقى أحمد أمين تعليمه الابتدائي في الكتاب مثلا تلقاه الامام عبده — وكما لعب الاساتذة الشيوخ في نشأة

التي كانت تسعى فيها الى حل المشكلات التعليمية والأيديولوجية.

ولرأى الاستاذ «مزيده» ما يبرره الى حد ما وإن كنا لا نستطيع أن نقبله كلياً، ذلك لأن سيرة حياته وأقوال أصدقائه تشهد على غير ذلك، فنجده في كتاب «أحمد أمين بقلمه وبقلم أصدقائه» الذي نشرته كازا له، أن أحمد أمين كان مسلماً قحاً في الجامعة القومية رغم تعاونه العلمي مع لطفي السيد الوطني الليبرالي، وقد سمي بـ «السني» لما امتاز به أحمد أمين من تثبث بتعاليم الاسلام وإن كان تمسكه بالطقوس أدى به الى خوض غمار التصوف المتنور في آخر حياته.

وفي هذا الصدد يذكر بنا أن نذكر الاوضاع الماثلة في حياة كل من المفتي محمد عبده والقاضي أحمد أمين (٢٦-١٩٢١) ولستأ نزيد أن نمر على المصادقات فكل ما تسعى اليه هو تمجيد مجال التطور الفكري عند المفكرين المسلمين المتجددين، وبناء على ذلك فإن المقارنة التالية بالنسبة لأحمد أمين توضح لنا طريق التطور بما فيه من العوائق والفرص.

كانت شخصية أحمد أمين تتحوى على شبه بشخصية الامام عبده ويعود ذلك إلى عهده التعليمي وكان أحمد



## نظرية التاريخ وتصور النبوة

حاول الأستاذ الامام محمد عبده التوفيق بين القديم والحديث، وقد تبلورت جهوده في هذه الناحية في تكوين نظرية التاريخ أوردها في تفسيره للقرآن، ففي هذه النظرية تلقى فكرة النبوة كعامل فعال يتدخل في مسيرة التاريخ والفكرة الاجتماعية لتطور المصطدرة المصطدرة نحو نقطة واحدة. فظلاً يمر تكامل الفرد بمختلف المراحل مثل الطفولة والمراهقة والرجولة كذلك يمر تطور التاريخ بمثل هذه المراحل وعليه فإن سنة الله في الامم تسمح لها بالتنمية حتى تصل مرحلة المراهقة التي تحف بها أخطار المقامرة المملوءة بالفوران العاطفي وحسب الذات وفي هذه المرحلة الخطيرة يبعث الله القدير عز وجل نبي يقوم من بين أبنائها ويكرمه برحمته سبحانه تعالى وبذا فان جميع الانبياء الذين أوثروا الحكمة من عند ربهم تتوفر لديهم الوسائل الكافية لاتمام رسالتهم، غير أن مرور الزمن يلعب بالناس الأصعب فيلسون أو ينامسون دعوة الرسالات السايوية، فيأتي أساتذة ويوشون الدين الحنيف شر تشويه، ويزيد الطين بلة تلك الخلافات السياسية التي تحدث التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة فتتقسم فرقاً وشعباً ويأتي وضع تقوم فيه البشرية التصالح باصلاح أمرها بالتعليم وتطهير نفسها خلقاً فترجع الى هدى الوحي.

وهذه النظرية تخالف فكرة التطور المتواصل نحو الكمال كما يقضي به قانون الطبيعة الذي يتنافى مع فكرة التنازل السايوي من طريق بعث الانبياء في مسيرة التاريخ، لان التطور نحو الكمال عند محمد عبده ان يتأني بدون التنازل السايوي كعامل خارجي والا فانه سيؤدي الى القوضي. فهنا تبدو نظرية التطور التي سادت أوروبا خلال القرن التاسع عشر بلا جدوى على مرور الزمن والنظرية القائلة بالتنازل السايوي عن طريق البعثة النبوية تخلف فعاليتها على اختلاف درجة تمسك المؤمنين بدينهم وعقيدتهم وهكذا فان الحتمية النظامية أو الآلية تتلاشى كي تحل محلها الحتمية الخلقية في مسيرة البشرية أو قل ان شئت المجتمع البشري للوصول الى الرجولة.

ولقد حاول الأستاذ الامام أن يوفق بين الفكرة الغربية للتقدم كقانون التاريخ الموجود بمداخلة في حياة المجتمع البشري وبين الفكرة الاسلامية التقليدية للبعثة النبوية على أنها منتهى الكمال، وقد تنبى أحمد أمين هذا الموقف وخطى معها خطوة أخرى بمجمله فيقول ان سنن الله في الامم مترادفة لنظرية الارتقاء القائلة بأن البشرية تخطو خطواتها نحو الكمال. وهذه العملية الشاققة تستمر

استمراراً بين البناء والمدمر فاذا حطت نحو التقدم خطوتين رجعت الى الوراء خطوة وبنينا نحتاج كل خطوة مختلفة الى بذل مجهود اكبر لمواصلة السير الى الامام، وتبدو هذه الحالة أكثر وضوحاً في بداية الشوط اذاً ان البشر لم يتبينوا بعد كيف يخطون ولم يصيبوا على وضع يستطيعون بازاله الاستفادة من التجربة الحاصلة في الوصول الى ما وصل اليه الانسان من التقدم في سيره وكلما أحس بالعموض في الهدف أو لقي عرقلة في طريقه أو شعر بالتعب والارهاق رأى لمة يريق تثير نفسه وهو يريق الامل يزيل الغموض والرائيل ويربح نفسه واذا كان ذلك حقاً بالنسبة للفرد فان البشرية مجتمعة تمر بنفس هذه المراحل والحام الفرد يصير على مستوى البشرية كلها طلوع النبوة أو بعبارة أخرى فان في هذه المرحلة الخطيرة يبعث الله نبي يهدي الناس على الصراط المستقيم وبعد النبي يأتي المجدد ويليه المصلح بعد أن تم تسوية الطريق وتوضيح معالمه، فاللهام قوة تتمشى مع مقتضيات قانون الطبيعة ويتسع مجالها فاذا كان الامام في أول الامر مقصراً على النبي ثم أصبح المجدد ينصون به وأتبعوا في وقتنا الحاضر صار المصلحون يلهون ويمكن أن تصبح هذه الميزة على مر الزمن ملكية عامة.

وعندما يكتب أحمد أمين عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يحاول أن يتره تصور النبي عن كل ما طرأ عليه من الأساطير التقليدية والخرافات، وكان رحمه الله في ذلك أشد وطأة من الأستاذ الامام عبده والمتجدين الذين يتشدقون ويتسابقون بأقلامهم في تأليف سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وذلك لأن الكاتب المتجدد عن سيرة النبي يصغه بأوصاف يتخلق بها زعم من زعماء البشر الكبار حين أن يولي اهتمامه بالتطور التاريخي والاعمال التاريخية التي قام بها، وبعبارة موجزة أنه يحاول أن يأتي بتصوير النبي على تصور لبطله هو، وهكذا فانه يجد نفسه مضطراً الى أن يقلب تصور النبي المملوء بالعناصر الزهية التي تعدها في التصور التقليدي للنبي ولا تستفي من ذلك الكتاب العظيم الذي ألّفه محمد حسين هيكل عن سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم).

وقد حاول كثير من الفلاسفة المسلمين القدماء أن يرفعوا عن الوحي النبوي كل ما هو خارق للعادة من صفات ويعملوه كأنه عملية طبيعية، وأما ما يعتبر خارقاً للعادة في شخصية النبي مثل ظهور المعجزات على يد مبعوثه بأمر من الله فالن فان كل ذلك رد سبيه الى العملية الطبيعية. وقوة الانبياء العقلية الحارقة للعادة تظهر في فهمهم

الذى يبرز علمهم بالاسرار الالهية وفي عروهم وعيهم، وقال الفلاسفة أنه من الممكن لانس نوايح أن يلغيا درجة رفيعة من العلم لا يتيسر لفهمهم من الناس أن يلفحوا، ومن أشهر فلاسفة المسلمين الذين ذهبوا الى هذا الرأى العقلى الفارابى كما أن ابن سينا يقول ان وضع كل الاشياء فى الماضى والحاضر والمستقبل فى نفس النبى ليس بأمر غير منطقي يخالف الطبيعة بل انه كما يتمشى مع النظام الطبيعى لليلة والحول لان قول هذا الوضع (أى حدوث أشياء صلبة دون سبب) يتلوم من كونه عقفا وعقليا.

وعلى كل فان الانجاء التقدي عند الفلاسفة المسلمين قد توقف عندما أخذت شعلة التنوير الاسلامى التى كانت الحركة المحتزة قد اشعلها أول الأمر... ولم تبعث هذه الحركة فى العالم العربى حتى جاء الاستاذ الامام محمد عبده وقام ببحث علمى فى موضوع النبوة لأول مرة فى العصر الحديث وقد نزه الامام فكرة الوحي عن الالهام المراكمة عليها منذ قديم، وقد تناول الموضوع من درجات مختلفة للنس، وحدا حلو الفلاسفة الاوربيين فى استدلاله، فقال ان الالهام ذروة الذكاء البشرى، وعند الامام عبده يكون الوحي نوعا من الالهام وذلك عندما يتكلم عن الحس الدنى فى الضمير الشخصى لذلك فانه لا يرى مدعاة للتمييز بين مغزى الالهام والادراك الحسى اذ يقول فى الرسالة: «أما نحن فنفرعه على شرطنا بأنه (أى الوحي) عرفان يحده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة او بغير واسطة». (رسالة التوحيد، الطبعة الرابعة، ١٩٥٦، ص ١٠١)

ووفقا لاعتقاد المسلمين عامة أن الوحي لا يأتي مباشرة فى جميع الاحيان وانما يلعب الملائكة دور الوكلاء، فيسمع الانبياء أصواتهم بظهورهم متجسدين وقد أوضح الاستاذ الامام هذه الظاهرة بطريقة تؤدى الى التوفيق بين ما هو طبيعى وما هو خارق للعادة فيقول ان بعض المرضى المصابين بامراض عقلية يرون صورا ويسمعون أصواتا يخلل لهم كأنها حقيقة ملموسة والحق أن هذه الصور والأصوات لا طائل تحتها وليست مبنية على الواقع اطلاقا. والمهم ان المرضى المصابين بامراض عقلية اذا كانوا يرون صورا ويسمعون أصواتا كأنها صور وأصوات أحياء، فكيف ببرجل أنهم يعقل بمنزلة فانه ليس بعيد أن يرى صورا ويسمع أصواتا لكائنات حى، ويسمى بالاشياء على ما هى عليه فى الحقيقة، ويمر بهذه الحالة غير المعتادة حتى قبل- نزول الوحي عليه، فقل هذا الرجل المتكامل روحيا يحضه الله التقدير بنعمه وينزل عليه الوحي.

هذا ما ذهب اليه الاستاذ الامام عبده فى مسألة الوحي، أما الدكتور فضل الرحان فانه أيضا فى بحثه عن «النبوة فى الاسلام» يلخص ما وصل اليه المتكرون من نتيجة فيقول:

«ان النبى اذن رجل يمتاز بقوة عقلية غير معتادة من حيث انه يستطيع أن يعلم بواسطة كل ما فى الكون بنفسه دون الرجوع الى أى مصدر خارجى ومع ذلك فانه من الضروري أن يكون التفكير الفلسفى سابقا لنزول الوحي كما يجب أن تمر قوة التفكير النبوية بالمراحل التى يمر بها العقل المفكر العادى، والفرق بين الشخصية النبوية والشخصية العادية هو أن الشخصية النبوية تعلم نفسها بنفسها».

ويقول لنا الإمام الغزالي ما خلاصته:

ان النبوة نعمة الهية لا يمكن الحصول عليها بالجهد وان كان الجهد ضروريا لاعداد الروح او النفس لتلقى الوحي بالعبادة والرياضة واعمال الفكر والقيام بالأعمال الخاصة والطبيعية.

والرسول فى رأى أحمد أمين المتحضر عن النبوة كما جاء فى مقالة «محمد الرسول المصلح» صفة تفصح وتعلم لا غير، وصاحب المقالة يدعى اهتماما أكثر بالإصلاح الذى قام به الرسول من اهتمامه بالافكار المقتدة المتشابهة عن الادراك الحسى والالهام والوحي، والحق أن أحمد أمين يركز على اهتمامه على إنسانية النبى ويظهر ذلك بكل وضوح فى مقالة «محمد رب بيت» ولا شك فى أنه لا يلبس القليلة العمياء فى عصمة الانبياء ومع ذلك فاننا نجد فى رسالته عن «المهدى والمهدوية» يتخذ موقفا معارضا من فكرة العصمة ويتكلم عنها بأسباب حتى يصعب علينا أن نستقنى منها عصمة أى نبى من الأنبياء.

هذا ونجده يصور النبى (صل الله عليه وسلم) على أنه رائد الثورة الاسلامية يتابع الأوضاع الاجتماعية فى بلده والبلاد المجاورة ثم ثم يرتكن الى غار حراء ويفكر ويعين فى التفكير امانا دقيقا فى دراساته العميقة الخزونة فى نفسه ويرى وهو فى هذه الحالة أن المعالجة العقلية البحتة لمشكلات المجتمع لا تجدى شيئا ومن ثم ينطوى على نفسه ويصنئ الى صوت قلبه قلبس هناك ملك يظهر كما تقول الروايات التقليدية مما جرى فى الغار وانما هناك شرارة الهية ... فتفتح النور للعواطف التى تخرج فى صدره، ويقول أحمد أمين أميانات أخرى ان الشرارة الالهية هى عبارة عن الالهام الذى هو الضرورة التى يعصل اليها بعد عناء التحليل الذائى والبحث عن القوى الداخلية





هانس فيرير جيرتس Hans Werner Geerdts (من مواليد كيبل Kiel عام ١٩٢٥):

الدينية لتصويره محمدا (صلى الله عليه وسلم) بقوله أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمتع عن أعمال العقل مفضلا شعوره وحسه الموهب ويظهر أحمد أمين أن فكرته هذه مبنية على رأى الأستاذ الامام :

وأكبر قيمة له (عبده) في تفسيره أنه كان يحبب العواطف ويحرك المشاعر أنه أكثر مما يستقصى بحث المسائل العلمية، فهو يتجه الى القلب أكثر مما يتجه الى العلم والعقل متأثرا بذلك بطبيعة الدين نفسه، أفادته سعة اطلاعه على الفلسفة الاسلامية ثم اتصاله بالثقافة الغربية؛ (زعما الاصلاح ص ٣٣٠).

وهذا الموقف يسمح للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يقول مفتخرا بأنه أى:

وأما طلب محمد الحق من طريق أسهى من ذلك كله وأرفع من ذلك كله طلبة من طريق القلب وأعلن أنه لم يطلب علما ولكن طلب إيمانا فاعلن أنه أى وفخر بأميته، لأن القلب فوق اللغة وفوق الكتابة والقراءة وفوق العلم وفوق المنطق؛ (فيض الخاطر ٢/٢٩٧).

وهذه الفقرة ان دلت على شئ فأما تدل على أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يكن أميا مخالفا للاعتقاد العام ولكنه كان يحب أن يصف نفسه بذلك والغرض من وراء

في هذه الاعتكاف.

وأراء احمد أمين في هذه المسألة تشبه آراء السيد أحمد خان، وقد خصص احمد أمين بابا في كتابه «زعما الاصلاح في العصر الحديث» للسيد أحمد خان أحد المصلحين في القرن التاسع عشر بالهند وبدا فان أحمد أمين يعبر عن إعجابه العميق بالسيد أحمد خان، ويصفه بأنه (أحمد خان) يشبه الأستاذ الامام عبده في قيادة الحركة الاصلاحية في شبه القارة الهندية الياكستانية، ويقول أحمد أمين ما مؤداه:

وقال ان الرحي كان بالمعنى دون اللفظ ذاهبا في ذلك مذهب بعض علماء المسلمين المتقدمين الذين حكى قولهم السيوطي في الاقتان، اذ قال: وذكر بعضهم أن جبريل انما نزل بالمعاني خاصة وأنه صلى الله عليه وسلم علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب، وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى: «نزل به الروح الأمين على قلبك» (زعما الاصلاح ص ١٣١).

فان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يستخدم جميع الوسائل للقيام بمهمته بكل قلبه ثم يلتفت الى قلوب بني آدم ويحرز نجاحا حاسما في أداء رسالته كرسول مصلح، وبهذه الطريقة يحاول أحمد أمين أن يبق على المسحة:



٢٩٤

مشاهد من ميدان جامعة الفتن بمراكش.

الشخصى من أجل البقاء والوثبة الجديدة الى الامام، يقول:

«وَسَيَا مُحَمَّد (صلى الله عليه وسلم) للامر العظيم فلمعت في قلبه الشرارة الإلهية كما يَبْشُرُ السحاب فيلمع البرق» (فيض الخاطر ٢/٢٩٧).

فالرسول المصلح يلقى الهداية بإعمال العقل والتفكير في الأوضاع الاجتماعية لشعبه، وهذه الهداية إبدان بالوحي، وبعد ذلك يحصل على القوة العديدة النظير للقيام بالأصلاح وهنا أيضا ليست القوة خارقة للعادة وإنما هي نتيجة للقوة الروحية التي بلدها.

وهناك عنصر من عناصر العقيدة فيما يحسه الأستاذ الامام عبده واتباعه من أن الوحي والعالم هما طريقان مختلفان يؤدیان الى هدف واحد ألا وهو الحق الإلهي وإذا كان ذلك كذلك فلا تفتيش بينهما أى لا يمكن أن ينقص أى واحد منهما الآخر، ومن ثم فإن هذه العقيدة دفعتهم الى بذل الجهود في البحث عن النظريات واختصرات العلمية الحديثة على أنها تؤكد ما جاء في القرآن الكريم أو في أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) أو تكهن بها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولكن القول

ذلك هو التأكيد على أولية القوة الاغامية للحصول على العلم دين الكتب وفي مواضع أخرى يعادل أحمد أمين القوة الاغامية بالرجولة وهي المصطلح الذي يعنى في اخلاقيات قوة الاخلاق:

«نقرأ تاريخ المسلمين في صدر حياتهم فيملؤك روعة وتعجب كيف كان هؤلاء البدو وهم لم يتخرجوا في مدارس علمية ولم يتلقوا نظريات سياسية حكاما وقادة لخريجي العلم ووليدى السياسة إنما هي الرجولة التي بثها فيهم دينهم وعظماؤهم هي التي سمت بهم وجعلتهم يفتحن أرقى الامم مدنية وأعظمها حضارة... ويلقون بعملهم درسا على العالم — أن قوة الخلق فوق مظاهر العلم وقوة الاعتقاد في الحق فوق النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية» (فيض الخاطر ١/١٥١).

وعلى كل لما الفائدة من فن القراءة والكتابة بالنسبة لقلب قوى مقع بحب الخير، فالقلب هو الموضع الذي يلتقي فيه العبد والله وجهها لوجه — والمهم أن المؤلف يهتم أكثر بما انتهى اليه هذا اللقاء من اهتمام باللقاء نفسه وهذا اللقاء لا يؤخذ على أنه نتيجة لتدخل قوة خارقة للعادة أو فوق الطبيعة بل انه يتم في اطار الارتقاء الخاص لقانون الطبيعة، والشرط الاساسى هو الاجتهاد

من تكوينهم الاساسى وعصرهم الاول» (فيض الخاطر ١٢٨/٥)

ويتناول هذا الموضوع مرة أخرى في مقال آخر له يتناول به اسباب أكثر ويتكلم فيه عن أحد أصحاب النبي محمد، أى ذر الغفارى الذى أشهر بتسمكه بالحق وميروله الاشتراكية، فيقول:

«وكان لرسول الله نظر صائب في الاشخاص ومواضع قوتهم وضعفهم، وكان يوجه كلاً حسب استعدادهم وما يصلح له، ويلقى بالنصيحة لكل فتذهب خبثه وتصر نفسه، وقد كانت نصيحته الكبرى لاني ذر اللقي تتفق ونفسه وما عرف عنه من قول الحق والدفاع عنه ما حدث به أبو ذر أنه قال: «أوصاني رسول الله أن أحب المساكين وأدنو منهم وأنظر الى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوقى ولا أسأل أحدا شيئاً وأن أصل الرجم وأن أقول الحق وإن كان مرا ولا أخاف في الله لومة لائم». (فيض الخاطر ١٨٤/٢)

ويذكر أحمد أمين فيها بعد كيف عملت تلك النصيحة السليمة المبينة على مهارة علم النفس على قلب أبي ذر الغفارى وقد جعلت مزاياه الانبيائية أشد قوة في نفسه وكانت لها أيام مع التاريخ. وقد أورد أحمد أمين هذا الواقع التاريخي بأسلوبه الخاص فلا بحاجة فيه ولا تكرار لشخصية النبي كما يفعل معظم من كتبوا عن السيرة النبوية مدافعين دفاعاً سليماً، كما أن أحمد أمين عندما يذكر شخص النبي (صل الله عليه وسلم) لا يستعمل كلمات التعظيم المبالغية المعتادة التي تجدها عند كثير من علماء المسلمين وحتى عند الزعم الوطى مصطفى كامل.

إن مسألة صلة الزمن بالخلود لها أهمية بالغة عند قادة الإصلاح الاسلامى المحافظين وآية ذلك أن الاسلام يقول بعدم ظهور الانبياء بعد محمد خاتم الانبياء، فلا حاجة بالازادة الالهية الى اظهار كماله — ومعنى ذلك أن سير التاريخ اما يبطأ أو يتطلع الى الامام حتى المستوى الذى وصل اليه النبي، والواقع أن امكانيات بقاءه على ما كان عليه ضئيلة — وذلك لأن معظم علماء البيانات وخاصة علماء الدين الاسلامى يعتقدون أن حركة الزمن تأخذ في الانحطاط أكثر منه الى الصعود، وبذا فان الحديث القائل: خير امتى قرى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم — صار لهذا الحديث فيها بعد يعنى أن السلف خير من الخلف. وقد أدى هذا الاعتقاد الى أن التاريخ يسير سيراً معاكساً أى الى الوراء وإذا استمر على هذا الحال فانه سيؤدي في هوة حقيقة أو في مصير المضمون ونشأت عن هذه

يمثل ذلك يدل على سوء فهم لطبيعة العلم لأن العلم يقوم على أسس متحركة للغة والمعلول فحسب ويمكننا أن نقول بأن العلم أيضاً طريق من الطرق المؤدية الى الحق غير أن النتيجة التي تصل اليها بواسطة لها صلاحية نسبية فلا بد من أن نعيد النظر فيها من حين لآخر، ويقول أحد النقاد وأن سوء التفهم عند الاستاذ الامام وأتباعه قد تعدد تمهيداً كبيراً بسبب علم علمهم بالاختلاف القائم في درجة الحتمية المتأصلة في نتائج العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، وهكذا فانهم حاولوا أن يحشروا في القرآن الكريم ما يشير ولو بعيد الى قوانين التطور الاجتماعى والميكروبات». ولما كان الاستاذ الامام عبده أول من بدأ هذه الحركة الهادفة الى التوفيق بين العلم الحديث والوحى فانه يحسن بنا أن نعرف له ذلك الجهد ولا أكثر منه نتوقع وخاصة اذا وجدنا مثله في الكتاب المسيحيين في القرن التاسع عشر، وكفى الله حسيباً فان الاستاذ الامام صاحب الفضل في مبادرة القيام بمحاولة التوفيق وإزالة العوائق من الطريق وقد أظهر عقلية جبارة نشيطة لا تعرف التراجع والتوقف بل تخطى بخطى حثيثة الى الامام بكل عزم وحاس، وعلى أتباعه المخلصين له أن يواصلوا السير الى الامام ويرفعوا سوء التفهم في جهودهم للتوفيق بين العلم الحديث والعقائد الروحية.

وها هنا أحمد أمين أشد أتباع الاستاذ الامام حماساً للدفاع عنه، يقدم لنا غير مثال للتفكير الجديداً وإذا صرفنا النظر عن الذين بالغوا في عموالهم لجعل الحقائق الدينية متمشية أو مطابقة للعلوم التجريبية، واقاموا الدنيا واقعدوها دون طائل، فان الاتجاه السليم الذى اتخذه أحمد أمين يفتح بنفحة منشطة.

وقد بذلت محاولات لا حصر لها لتقديم شروح مبسطة لشخصية النبي محمد تطابق مبادئ العصر الحديث، اما أحمد أمين فينتج منتجاً مغايراً لذلك، لانه في معالجته شخصية النبي يمتاز بالاناقة دون أن يكون لجوحاً (كالخاد في كتابه «هجرة محمد») أو متناقضاً (كمحمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد») فقد يكتفى باثبات ميزات النبي الجوهريه، فانه اتخذ أسلوب الحوار ليتناول هذا الموضوع مستغلاً بعض التوحى النفسية على الطريقة العلمية الحديثة فيذكر براعة النبي في علم النفس في احد مقالاته بعنوان «وفى الهواء الطلق» اذ يقول:

«والنبي الذى يمشى، والمصلح الذى ينبغ من أكبر الرجال الذين يعرفون نفسيات الانبياء، فيعرفون كيف يرشلون كلا الى الناحية التي خلق عليها من غير أن ينهروا

الحالة الياسته فكرة ظهور المهدي وهكذا فان التاريخ قد قضى عليه - والياس غلب على الناس. ولا شك أن هذا الموقف النفسى يقضى لتصور الانسان الوصول الى الكمال بيهديه من الله القوى والوسائل الطبيعية التى هيأها الله التقدير للانسان وحده دون غيره، يقول حسن صعب وانا مع اقبال حين نقول ان روح القرآن الحققة تركت للإنسان باب الاكمال مفتوحا لتجابهنا وفى الآخرة، وهنا لا بد من أن نؤكد على أن المحاولات التى تبذل من أجل الاصلاح مستذهب هياء مشورا ان لم نؤمن بمقدرة الانسان على الوصول الى الكمال بدهاءة، وقد أدرك الفلاسفة والصوفية المسلمون هذه الحقيقة ادراكا أحسن من علماء المسلمين المحافظين ومن ثم فانهم تركوا الباب مفتوحا لحدوث تجربة النبى للحق مرة أخرى، وذلك عن طريق العقل المتفكر كما دعا اليه أرسطو أو عن طريق الحياة ملوهاً للتفكير كما جربه ودعا اليه افلاطون.»

وهذا اليأس الناتج عن انحطاط الامة المسلمة فى مختلف مراحل التاريخ أدى الى ظهور فرق عدة فيها البهائية والاحمدية، وقد قال مؤسس هذه الفرق بأن المسافة الشاسعة بينهم وبين الرسول العربى بحيث لا يمكنهم أن يعلموها الا بعد أن يدعوا اليهم هم الانبياء، أما قول القرآن الحكيم بأن محمدا خاتم النبيين فأولوه الى أنه خاتم يؤكد على أنهم قد خلقوا فى أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، ويحاول أحمد أمين أن يزيل هذه العقدة الناتجة عن الانحطاط وهو يشعر بأنه مصلح، عليه أن يجارب هذا المرض النفسى دين أن يخرج عن دائرة التقليد النبوى والسنة الشريفة. وهكذا فان مثل كمثل المصلحين الذين يظهرين فى بلاد مختلفة فى وقت واحد تبعا للنظرية القائلة بظهور المجددين على مرور الزمن فقد عرف ذلك التاريخ الاسلامى فظهر مجدد فى كل قرن فى بلد اسلامى كبير والمجددون هم استمرار زنى الهممة النبوية التى بدأها النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، فيقول أحمد أمين فى كتاب الاخلاق:

واما المصلحين فانهم يرون موضع الداء فى الامة فيعالجونه، وكثيرا ما يحدث أن الداء يتأصل فيها حتى تألفه وتظنه السلامة، فاذا دعاها المصلح الى العمل على الخلاص منه قامت فى وجهه وعارضته وحسبته خارجا عليها كما قال الله تعالى (أوكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) (كتاب الاخلاق ص ٣٥).

ويرى أحمد أمين كلمة الصالح (والدين علماء الصالحات)

التي ترد فى القرآن الكريم تكرارا وكلمة المصلح، على أنها يتحدان فى الدلالة على شئ واحد وذلك لأن كلا من الكلمتين تعود الى مادة واحدة وهى (صلح)؛ اما الدلالة العامة لكلمة الصالح فهى تطلق على من يودى الصلوات حتى أدائها بالمواظبة ويصوم ويقرأ القرآن كل يوم ويعتقد أنه يودى بذلك واجباته الدينية بكاملها، أما أحمد أمين فانه يرى خلاف ذلك اذ يقول:

«و غاية الأمر أن الناس غيروا معنى الصالحين، ففهموا منهم الذين يكثرون الصلاة والصيام ويكثرون من تلاوة القرآن ولو اكتفوا بذلك وقضوا فيها حياتهم على حين أن المراد بالصالحين الذين يستخلفهم الله فى الارض هم الصالحون لادارتها، القادرون على تدبير شؤونها، الذين يستطيعون تنظيم أحوالهم» (فيض الحاطر ص ٣٤/٩).

وهكذا كان الصالح يقوم بعمل ثانٍ وبدا فانه يقرن الصالح بالمصلح ويبنى عليه فكرة مهمة المصلح ويشهد عليها بالآية القرآنية: «وما كان ربك ليهلك القرى يظلم أهلها مصلحين» (القرآن الكريم ١١/١١٧). وقد فسر أحمد أمين الآية الكريمة فى مقاله عن سنن الله فى الأمم على أنه:

«والموارد يكونهم مصلحين أنهم مصلحون فى أعمالهم الاجتماعية والعمرانية فلا يضيئون الحقوق، ولا يرتكبون الأثم والميلان والطغيان» (فيض الحاطر ص ٣٥/٩).

وهذا المقال (ويليه مقال عن سنن الله فى الكون) عبارة عن نقل فكرة الاستاذ عبده التى أدت به الى اتخاذ فكرة الفيلسوف الالماني الشير وكانطه، من أن التقدم (التطور) خطوة الى الامام بصورة مستمرة نحو الكمال اللانهائى وقد تعمق اعتقاد أحمد أمين فيها فذهب اليه الاستاذ الامام عبده من اعتقاده ان التقدم بما قرأ أحمد أمين من كتب ه.ج. ويلس H. G. Wells. وكان بعض الكتاب قد بشر بحلول الرغد والسعادة للبشرية فى خلال السنوات السابقة لنشوب الحرب العالمية الاولى وكان لهذا الفاضل العظيم أثر بعيد المدى بالنسبة لشعوب آسيا وافريقيا ومازال أثره قائما حتى اليوم فلا غرو فان الشعوب الاسيوية الافريقية الحديثة العهد بالاستقلال تزو الى رغد العيش والسعادة بعد أن أفلحت فى كفاحها للخلاص من نير الاستعمار والاستغلال فهى تتطلع الى ما قد سيجئ به عهد التكنولوجيا الحديثة من المجهزات فى تخفيف متاعب الحياة، وتعلمها الى ذلك العهد السعيد أكثر لحفا وشوقا من الشعوب الأوروبية المتخفية الأمل - وليس يعنى ذلك أن



نهر الفرات عند بابل.

الحياة الكبرى في الحياة هي الحب، الحب الذي نلقاه من أجل المحبين، وليس الشخص هو الذي يهوى بالحب، وإنما الحياة التي رادتنا بالأعمال والمعاناة إلى الاعتقاد بعالم إلهي، وبجذب عميق للناس وللأمل، حتى لا يمسى سعينا البشري هباءً ماثوراً وحتى يؤدي إلى الغاية الحقة لتطور العالم — الذي هو الحب.

من رسالة القديس بالوس الأولى إلى أهل كورينث، الباب الثالث عشر: «وأما الآن فصار في قوة الإيمان استمرار، وكذلك في سلطان الأمل، وفي علم الحب المبارك. لكن أكبر هؤلاء هو الحب.»

نهاية «ذكرات الحياة» للخالتر آندريه Walter Andrae

من: Walter Andrae, Lebenserinnerungen eines Ausgräbers. Walter de Gruyter & Co., Berlin 1961. نشر دار النشر على أعارته. لنا كلبيات هذه الأقوات.



على الطريق من بابل إلى حلب.



على مقربة من حلب.

عن: Walter Andrac, Lebenserinnerungen eines Ausgräbers. Walter de Gruyter & Co., Berlin 1961. نشر دار النشر على اعاترثها  
ك كلفشيات هذه اللوحات.

أحمد أمين لم يكن يترك مغالطة هذه الاتجاهات الفكرية ،  
اذ أنه يقول في كتابه «الشرق والغرب» (وقد نشر بعد  
وفاته في عام ١٩٥٥م):

«كان الناس في القرن التاسع عشر يؤمنون بتقدم العلم  
المستمر، ويعتقدون في المستقبل اعتقاداً حازماً، فلما جاء  
القرن العشرين شك الناس في كل شيء، وذهب الإيمان  
بكل شيء. كل نظرية علمية وجد من الملاء من يشك  
فيها، وساد التشاؤم بين الناس، فلماذا يسأوا ولماذا تشاءموا،  
مع أنهم أحرزوا تغيراً كبيراً في النصر في المبادئ المختلفة؟ لقد  
فضلوا كما فعل ميداس، في الميثولوجيا اليونانية، اذ فرح  
أول الامر بأن عنده من القدرة ما يجعل كل شيء يسه  
ذهاباً، فلما هم بالاكل من الرغيف فتحول ذهباً» (الشرق  
والغرب ٤٥).

وهكذا فإن ذهاب الثقة في الترجية العقل عند المفكرين  
الفرين لم يبطئ همة أحمد أمين ويؤثر في تحمس المثل  
العلمي لتقدم بل قوى اعتقاده في المستقبل ودفعه الى  
الانتقاد سديفاً تغير تفكيرهم، هذا الانتقاد الذي نلهمه  
في أوردنا من قوله أنما يصبح اعتقاد أكيد في مستقبل  
زاهر كالذي يجده في الجزء الثاني من كتابه «ظهر الاسلام»  
(١٩٥٢)، يقول:

«نحن نؤمل أن العالم يسير الى الأمام على العموم. قد  
تختلف بعض الأمم فتومت، وقد تختلف بعض الأمم  
في بعض النواحي، ولكن العلم في جملة يسير الى الأمام  
دائماً، فعالم اليوم خير من عالم الأمس. قد كان العالم  
محكوماً بحفنة من الملوك المستبدين، لا يرضون للشعوب حقاً،  
وكانت تكن الكلمة تقتل من شاعوا، ومصادرة من شاعوا  
— كما رأينا — ثم أصبح للشعوب حقوق، وللشعوب قوة،  
تنزل بها وتعل وتشرع، ولم يصل العلم الى مثواه بعد.  
فلا تزال فيه حفنة من قادة السياسة تقوم مقام الملوك،  
تملن الحرب وتخرب الممالك، ونحو ذلك من أفعال سيئة.  
ولكن العالم يستقيم، والعلم يستقيم، والنظريات الغامضة  
ستتضح، ويفهم العلم في المستقبل القوانين التي تحكم العلم،  
والحقائق التي تم على رؤسهم. وستكون الشعوب هي  
التي تحكم في أمورها وترعى مصالحها ... قد يكون  
ذلك قريباً، وقد يكون بعيداً، ولكنه سيحدث على كل  
حال» (ظهر الاسلام ٢٧٠/٢).

ويقول: «شعوب اليوم في فهم الحكم أرق بكثير من شعوب  
الأمس التاريخ» (فيض الخاطر ٢٦٨/١).  
ليس هذا فحسب بل ان النقد الأدبي — وهو من أحب

الاشياء الى نفس أحمد أمين — سيتحول تحولاً كاملاً تاركاً  
وراءه الافكار البالية وسينقلب رأساً على عقب، يقول:  
«فالأديب سوف لا يغني لنفسه وانما يغني للناس  
وسيرتبط الادب بالنظام الاجتماعي ليؤدي فيه وظيفته الحقة  
وبذلك سيدخل الادب فيها معتقد في عصر من عصوره  
الزاهية» (فيض الخاطر ١٦٤/٧).

ونظرا الى هذه الثقة التي تبلى في كثير من الاحيان كانها  
قصة بلهاء — فإن التساق الايمية بعض اقواله العابرة  
الدالة على اليأس يلودعهم الجدوى فلما يقول أحمد أمين:  
«أما الذي يظهر بالعين المجردة وبالمكروسكوب العادي  
فاستمرار العلم القديم في سيره. ستبقى النزعات القومية  
والمناضات الاقتصادية وستكون المرأة أكثر حرية ولكن  
سيكون العلم بمرتباً أشد تعقيداً وأكثر مشاكل». (فيض  
الخاطر ٢٥٧/٥).

ويلهب المستشرق الامريكى فيون جرونباوم von  
Grunebaum أبعد من ذلك فيقول إن أحمد أمين «ينظر  
الى الماضي نظراً ملوثة شوق وفقد». وقد قال ذلك بناء  
على ما ذكر عن قول أحمد أمين في سيرة حياته (١٩٥٠)،  
يقول:

«وبعد، فما أكثر ما فعل الزمان! لقد عشت حتى رأيت  
سلطة الآباء تتأثر، وتحل عليها سلطة الامهات والابناء  
والبنات، وأصبح البيت برلماناً صغيراً، ولكنه برلمان غير منظم،  
ولا حاد ولا تؤخذ فيه الأصوات ولا تتحكم فيه  
الاعلية، ولكن يتبادل فيه الاستبداد، فاحياناً تستبد الأم،  
وأحياناً تستبد البنت أو الابن وقلاً يستبد الأب، وكانت  
ميزانية البيت في يد صراف واحد فتلاصحت منها أيدي  
صرافين، وكثرت مطالب الحياة لكل فرد وتنوعت، ولم نجد  
رأياً واحداً يمدل بيننا، ويوازن بين قيمتها، فتصادمت وتعارفت  
وتخاصمت، وكانت ضحيتهما سعادة البيت وهدوؤه وطمأننته.  
وغزت المدنية المادية البيت فنزركهراتى وراديو وتليفون  
وأدوات للتسخين، وأدوات للتبريد، وأشكال وألوان من  
اللائث ولكن هل زادت سعادة البيت بزيادتها. (حياتي  
٢٤، الطبعة الثالثة، ١٩٥٨).

فثل هذا القول الشارد بظايله العام الذي يجده في سيرة  
حياته لا يمكن أن يكون دليلاً على ما ذهب اليه المستشرق  
السابق ذكره من أن أحمد أمين كان ينظر الى الوراء ويتخذ  
أساساً لنظرته (أحمد أمين) الى العالم، فهناك فقرات عديدة  
يعبر فيها أحمد أمين تعبيراً واضحاً لا غموض فيه عن  
اعتقاده في التقدم، ففي كتابه «زعما الاصلاح في مصر  
الحديث» يقول أحمد أمين في معرض حرية المرأة :

ولكن نشأ عن ذلك ما هو طبيعي وهو أن من نال الحرية بعد فقدانها لم يحسن استغلالها أول عهده بها حتى يرن عليها ويكتوى بنارها فيعرف بعد كيف يحسن استغلالها. (زعراء الإصلاح ٣٤٥).

ولهم أن اعتقاده في التقدم يتقوى بفننه المتلازمة بالنجاح اللهم بطريق التعليم السليم، فانه ليجه نقدا مريرا الى فوران المصريين وفقدان ضبط النفس في السراء والضراء، لأن التقدم يحتاج الى ضبط النفس والنظام في جميع نواحي الحياة، ويمكن أن يرتفع المصريين الى هذا المستوى اذا ما اتاحت لهم الفرصة لتلقى التعليم السليم.

وأحيانا يحاول أحمد أمين في «فيض الحاطرة» أن يوضح رأيه بإيراد حديث فثلا يروى «فيض دعى رجل عاقل من قبل أناس فاسدين متحارين بعضهم بعضا ليقودهم الى سواه السبيل ويحل بينهم السلام والرخاء - ويؤدى الرجل الحكم هاتيك المشورة: «نصحيكم لكم ألا أتفت اليكم ولا تلتفتوا الى أنفسكم ولا أعلق الرجاء عليكم ولا تعلقوا الرجاء على أشخاصكم وأن تساعفوني على إهمالكم أنفسكم وأن تلتفتوا معي الى صغارك .... أنشئوا

لم المدارس التي تسع لهم جميعا وأحملوا الحكومة أن تخصص أكبر ما تستطيع به من ميزانية لهذه المدارس، ولا شأن لي بكل الا شأن الوزير الذي عين فدخل مكتبه فيجد الدفاتر مكدسة والملفات مبهثرة والاوراق مغيرة وحاول أن يدرس المسائل فلم يفهم وأن يبيع تاريخ أثر، فلم يستطع فأمر بأحراقها جميعا وأنشأ دفاتر جديدة على نمط جديد» (فيض الحاطرة ١٦٤/٣).

ومما لا شك فيه أن هذا الايمان بالقوة الشاملة للتعليم - أي التعليم علاج ناجح لجميع الالواء - قد شاطره فيه أغلبية المثقفين المصريين، ومنهم طه حسين الذي تولى مرة منصب وزير التربية والتعليم والذي ألف كتابا اسمه «مستقبل الثقافة في مصر» ومع ذلك فان الذي يهمني في هذا الصدد هو وفاة أحمد أمين للاستاذ الامام محمد عبده في هذه الناحية، فيقول أحمد أمين عنه:

«وعلى هذا الاساس في التفكير كان يريد أن يسيطر على برامج التعليم في المدارس حتى يصلح النفوس من هذا الطريق بالتوسع في التاريخ الاسلامي وبث مبادئ الدين الصحيح ولهذا كان يشترك فرصة لتقديم تقرير عن التعليم (زعراء الاصلاح ٣٣١).

وبناء على ذلك فان أحمد أمين تابع هذه الخطة للعمل وكرس معظم حياته على التدريس وقد بدأ كدرس للغة

العربية في المدارس الابتدائية وعمل محاضرا في الاخلاق في مدرسة القضاء كما قضى عشرين سنة مدرسا للادب العربي في الجامعة المصرية ولقد انتهى عهده بالتدريس عندما أقام الجامعة الشعبية المصرية في عام ١٩٤٥ وكان ذلك نجاحا باهرا.

فلا حيلة بنا أن نذكر أن التشابه بين أحمد أمين والاستاذ الامام كان مبنيا على الميل الطبيعية المشتركة بينهما فيقول أحمد أمين ان أحب الاعمال الى نفسه هو التدريس فانه يشويه ويمجد فيه اكثالا لشخصيته.

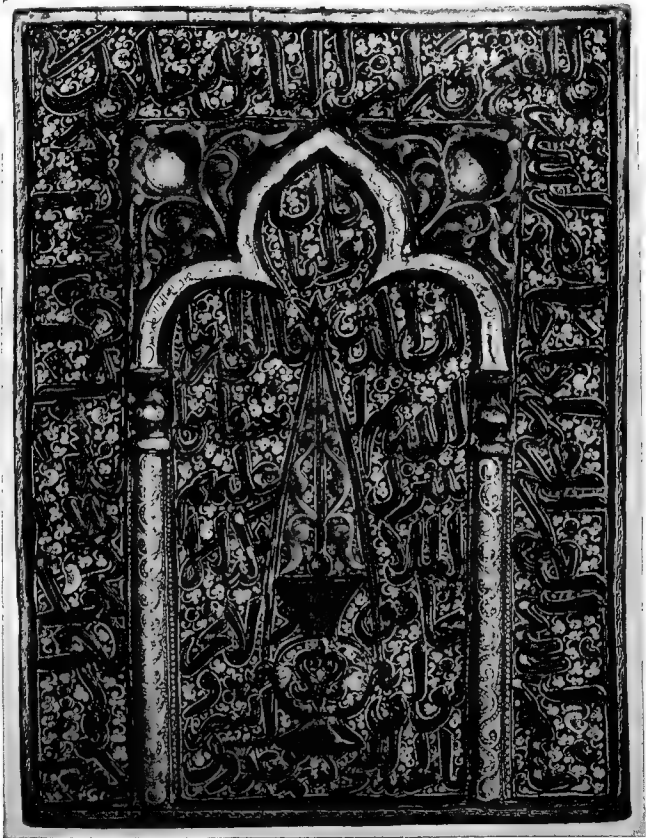
وقد قام بتصحيح واعداد أمهات الكتب الادبية العربية وهذا العمل الجبار دليل على وقائه للاستاذ الامام الذي اسس في مصر جمعية برباسته سميت «جمعية احياء الكتب العربية» كما ان احمد أمين وضع ونشر كتابا مدرسية للمدارس الثانوية - وكل ذلك ليس الاجزا قليلا من الخدمات الجليلة التي اداها من أجل اصلاح شعبه حاذيا حلو الاستاذ الامام محمد عبده بأدق معنى الكلمة.

#### المحافظة التجديدية

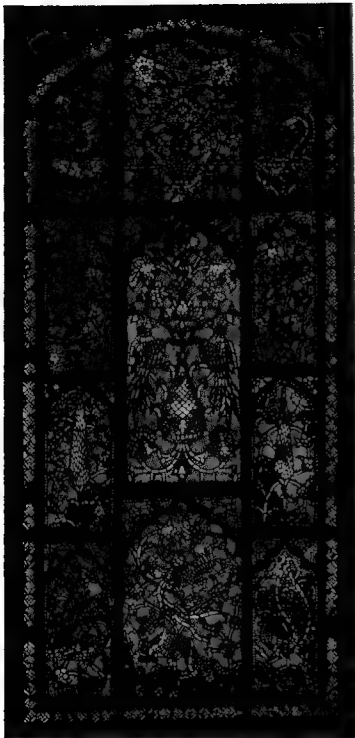
غزت الافكار الغربية على الشرق الاسلامي على اثر انحطاط وغلبة اوروبا عليها وعمت الليبرالية في صفوف الطبقات المثقفة وان لم تكن قد سيطرت عليها الحرية الغربية بصورة كاملة ومع ذلك فانها وجدت طريقها الى الناحية السياسية فنجد أثرها في كثير من الاحيان في صور مختلفة، ولقد أصبح تأثير الافكار الغربية قويا الى درجة أنه غدت تغزو سنن التي (صلى الله عليه وسلم) المقدسة وفتح باب الشك فيها على مصراعيه وفي وجه هذه التيارات الحارثة أمسى المليونين بالاسلام الحديث يفقزون حول أنفسهم ويلجأون الى التصرف المحفوف بأشد الغموض. أما المدافعون المسلمون فلم يقبوا بذل جهد يذكر لتفسير التطورات التاريخية من حيث يتاح لهم الصدور في جو النزوات الفكرية الغربية بينا نجد العلمانيين عزلوا أنفسهم عزلة تامة عن الجماهير.

ومما يهمني أن أحمد أمين يقف موقفا مختلفا في خلال الجزء الاكبر من حياته من هذه المسائل بالنسبة لكل من الفريقين اللذين تحمدا عهما آنفا، بما أنه كان أقل تزمنا وأرفع حسا من العلماء التقليديين في مواجهة الآزمة فانه بذل كل جهوده لتفريق بين الفريقين على أسس المثل الاسلامية، وقد كان يشعر شعورا قويا بأن الوضع الراهن يقتضي تقديم صورة جديدة للاسلام، ولا سبيل الى ذلك الا باستغلال الفحوى الخلقى للحي يبنى عليه





لوحة خرفية من ضريح «الوطيد خدابنده»، وهي تشكل محراباً من ثلاثة أضلاع. وتزينها قطع براقعة متعددة الألوان من غرف «كاشان». صنعت في الأواخر القرن الثالث عشر. وهي محفوظة في مجموعة وقف جولييتيان Gulbenkian بلشيرة.



كل اللوحين مأخوذاً من كتاب:

Der Iran und seine Kunstschätze. Meder und Perser, Die Schätze der Magier. Die iranische Renaissance. Text von A. Mazaheri. Éditions d'Art Albert Skira, Genf, 1970.

يحتوي هذا الكتاب ذو الحجم الكبير والطباعة الجيدة على العديد من لوحات الملوحة وأشلة الفن الإسلامي في إيران. وإن هذا الكتاب الممتاز يجير باهتمام قرائنا الأعماء.

نافذة زجاجية من درب إمام في إصفهان. معجون زجاجي ملون. القرن الخامس عشر. جويل ستون، إصفهان.

نذكر دة. نذر سكره! لاحتفاءنا لكلمات هذه اللوحات.

الفكرية الإسلامية على أساس جديد. ولذلك فإن أحمد أمين استأنف الحركة وجعلها في متناول العامة، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن أحمد أمين هو أكثر خلفاء الإمام عبده قربا منه، وقد خصصنا بابا لهذا الموضوع في بحث آخر عن أفكار أحمد أمين فلا حاجة بنا إلى الأعمان فيه في هذا الموضوع ويمكن أن نقول أن الموقف العقل للمتجدين من تلقى الثقافة الغربية كان مائلا بين القديم والجديد فلم يكن نشاطهم مبنيا على خطة لتقوية الحركة التجديدية ولكن أحمد أمين الذي بحث في المتزلة بحثا مبنيا على الأسس العلمية كان يضي على المهجين في دراساته ومؤلفاته دون أن يجد صعوبة في ذلك. وكان أحمد أمين كاستاذ الإمام عبده يدرك أدراكا تاما بأن هنالك شيئا جديدا سيأتي لا مناس منه، وعمله في تأليف سلسلة كتبه العظيمة عن تاريخ الثقافة الإسلامية مؤثرا أنه يهيئ حياته على ملتي عهدين كبيرين وقد مضى العهد الثالث وويل على غير رخصة العهد الأسلاف الرابع على وشك الظهور فلا بد من أن يكون العهد الرابع مختلفا اختلافا كلياً عن العهد الثالث وهذا يحتم عليه أن يعد العدة لاستقباله وهذا مما حث عليه أن يأتي بمبادئ الإيمان الجديدة التي تحل الاتحاد بين الطبقة المثقفة والجاهل، فلهذه أن يحدد رموزا جديدة تقضي على الاختلافات العقائدية التي تحدث الانتشار والتفرقة في جميع الشرق الاوسط وأول هذه الرموز فكرة «خلافة الانسان في الأرض»، ويقول المستشرق «كنت كرايج» Gragg في كتابه عن الشورى في الإسلام المعاصر:

«إن لا حاجة بالإسلام - على العكس من سائر الديانات المنتشرة في آسيا - إلى إعادة نظرت في الانسان أو التعديل فيها من أجل تبوئه مكانة مرموقة في العالم المنظم نظمتا علميا، فالإسلام لا ينكر ذلك، والأقدام على العمل وفقا لشرعية الله لا يوجب نيل العقائد الدينية السليمة، والتكنولوجيا يمكن تأخذ على أنها أداة لتحقيق الخلافة الموعودة في القرآن الكريم، وأما الصراع بين التجديدية وأساليب حياة المسلمين فيمكن أن يقال أنه ناتج عن خطأ في تفهم معنى التجديدية الكامل، إن الانسان لا يتحصر شيئا من العلم الا التشويه الذي يتحملة المسلم بسبب اعتقاده في الجبرية وإسلامه العلم. إن الذي يلوم هو التوكيد على خلافة الانسان في الأرض فالانسان وصفه الله على بأنه مستعمر الطبيعة».

وهكذا يقول أحمد أمين في رسالته «الشرق والغرب»:

«والإسلام نفسه عظم من شأن الانسان، وجعل الانسان

صرح للإسلام جديد، وقد وجد قلبه يتخفق بما كان ينتج في قلب الإمام عبده فقام بإجلاء الاتجاه الاسامي في أفكار الإمام عبده جلاء أوضح وهنا نرى المدى الذي وصل إليه أحمد أمين بصيرته الثاقبة للعناصر الاساسية من أجل التوفيق الذي كان الإمام عبده يهدف اليه في تكفاه للإصلاح وكانت خطية هامة نحو الإصلاح الناضج أو الذي يمنع الانحراف ويكون سدا منيعا في وجه التفكك والردى، وبذا فإن أحمد أمين كان يدعو أبناء الثقافة الغربية إلى نوع من الإصلاح الذاتي يمكنهم من تلقى الثقافة الغربية ويتيح لهم في نفس الوقت أن يتشبها بالمبادئ والرموز التقليدية فالحركة الإصلاحية، تمكن المثقفين ثقافة غربية من الحفاظ على دينهم ومثلهم العليا وقد كانت الدعوة عامة موجبة للجميع ليبراليين كانوا أو قوميين أو اشتراكيين أو شيوعيين أو مسيحيين، كما أنها كانت تهدف إلى منع ظهور فئات انفصالية تتنافى مع الإسلام من الناحية النظرية، ويحدد في ذلك لب تعاليم الإمام محمد عبده فإنه كان يريد أن يثبت لمعاصريه أنه بإمكاننا أن نكون نافرين بمجدين ولا بأس اذا ما قبلنا ما انجزته الحضارة الغربية من الاعمال وفي مقدرتنا أن نرفع أنفسنا على مستوى مقتضيات الحركة العقلية العالية وفي الوقت نفسه نستطيع أن نحافظ على التقاليد المقدسة في زينا المذهب تهليبا جديدا وكرسان الإمام عبده يسعى مثل ما سعى إليه أستاذة الافغانى وكان يبحث عن القديم الذي كان يضي القوة للتخطي نحو الجديد ورض أنه كان يحافظا فإنه كافح من أجل التفكير الثوري باللقاء المحاضرات العلمية الرائعة».

لنعد إلى دراسة إيلي قندوري وقد جاء فيها ما يعبر عنه بـ «علم الإيمان النبوي» عند الافغانى والإمام عبده ولكن المستشرق هاملتون جب Gibb يرفض ذلك الرأي اذ يقول:

«قل من يوافق على رأي كرور القائل: إلى أن أتى في صديق محمد عبده فإنه يدين لي يؤمن بالادارية. يقول الأستاذ جب أن محمد عبده كان معتزلا على الأرجح. وراى جب هذا يقويه ما قاله «جولدنزير» Goldziher في كتابه «انجماهاات تفسير القرآن في الإسلام» وكذلك نجد «روبير كاسبار» R. Gaspar يؤكد على ذلك في مقال له عن بحث المتزلة، فقد تناول كاسبار فيه ما فعل أحمد أمين بتجديد الإمام عبده من أنه جعله عمويا، ولا شك في أن هذا العمل في نفسه أهم ميزات الحركة التي قام بها الإمام عبده لوضع الحياة

خليفة الله في الأرض. وفكرة خلافة الإنسان لله أثرت تأثيراً عميقاً في الفلاسفة المسلمين، إذ قرروا أن هناك علاقة مباشرة بين الإنسان والله، وأن الإنسان فوق جميع الخلق، واستندوا إلى ما جاء في القرآن: وسخر لكم ما في السموات والأرض. وقد تأثر الفلاسفة المسلمون بأرسطو ولكهم لم ينسوا ما جاء به الإسلام من نظرية خلافة الإنسان لله. والعلماء المسلمون كالفارابي والرازي والراغب الأصفهاني قد زادوا في النظرية القائلة بأن الإنسان يشترك مع الله في صفاته. (الشرقي والغربي ١٤٤)

والرمز الثاني المعاد تبيان هو الفكرة المخالفة للإنسان الكامل الذي يقال أنه الموضوع الأساسي للإنسانية العربية وقد اتخذت هذه الفكرة في العصر الحديث عن الشاعر الفيلسوف ومحمد اقبال. وقد تأثر به أحمد أمين تأثيراً كبيراً. وقد تكونت هذه الفكرة أساساً من خلال الصلة بين أحمد أمين وإقبال وقد حاول أحمد أمين أن يقدم هذه الفكرة خلافاً لفكرة الفيلسوف وينتبهه عن السوبرمان Super-man (الإنسان الكامل) كما فعل إقبال نفسه ولكن إقبال استعمل هذا الرمز لتدور في فكره نظريته في الأخلاق ومن ثم يتصل بالاستاذ الامام محمد عبده بصفة، فالاستاذ الامام عبده قام بتمهيد الطريق الى وضع جديد للعمل العليا من أجل نفع الروح الجديدة في الحياة الخلقية والاجتماعية والعقلية في مصر - ومن أجل هذا الفرض فانه كان يدعو الى سبر اغوار الانسان النفسية والروحية. وفي ضوء هذه النظرة العميقة يتسنى لنا أن نقدر قيمة ما طرأ على الاسلام من الظواهر.

وليس ذلك المنهج الذي سبق أن تحدثنا عنه جديداً كل جنة فهناك الإمام الغزالي الموحّد العظيم الذي يعتبر مجدد الاسلام عند المسلمين في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، إذ أن فكرته الدينية تمتاز بالتريث على الاخلاق فقد مكّنه ذلك من التوسيد بين الافكار اليونانية والمسيحية والفارسية والهندية والباطنية (أو العارفين الزائفة) وقد صهر كل ذلك في بوتقة واحدة مما أضمن على الاسلام سعة في النظر والطلع الى المستقبل بقلب مفعم بالأمل وقد تسرب الى الاسلام أحسن ما أنتجته قريحة المفكرين المسلمين عن طريق الامام الغزالي، وأضفى ذلك على الاسلام القوة الحيوية الجديدة وعلى الرغم من ذلك فقد وجد الإمام الغزالي المصادر الأولى لهذه الأفكار في الاسلام فكان يعرف كيف يستنبطها من أقوال المسلمين السابقين - ولهم أن فعالية الغزالي الخلقية هي التي دفعت الى حل على للترتبات النظرية والقوى غير المألوفة وإحلال جو الانسجام في

نهاية المطاف - فان السلم وجد نفسه مضطراً الى بذل جهوده لتتسلل بالأخلاق حتى تلاشت أماته كل الخلافات والمترعات النظرية.

وقد اتقى الاستاذ الامام عبده ومن بعده أحمد أمين أثر الامام الغزالي بأذلا جهوده ليسلأ خليج البعد بين الله والعل وعبيده العالمين على حب الخير الذاتي والخلق الاجتماعي، فان الايمان بالله اللب يمكن أن يتجلى في اهتمام الانسان بالاهداف الرفيعة وامتداد الذات الجماعية واعلاها كما يقتضى بذلك الايمان بالله عز وجل.

ومما لا شك فيه أن الاهتمام بالأخلاق يوجب شيئا من التشكك من ناحية والتشكك في الشيء عامل من عوامل البحث يلتجئ اليه الباحث عمداً، ولكن هذا التشكك معتدل يمكن عمله في التجربة دون غلبة تكوين الفكرة - وهكذا فان الذاتية كذاية التصوفة المتطرفة لا محل لها هنا لان الإصلاح اللبني يقوم على ثلاثة مراكز للجاذبية اذ أنها تهيئ عملاً بشريا لبثت الاسلام، وهي:

- ١ - وضع نظام جديد للقيم وتوفير أسباب بها عن طريق نظام جديد للتعليم الديني.
- ٢ - التجزئة الذاتية وبناء الفرد من جديد نتيجة لها وبناءاً على نظام القيم الجديد.
- ٣ - القيام بوضع فلسفة اجتماعية جديدة للجماعة الاسلامية تتفق ومتصيات العصر الحديث.

وبين اتباع محمد عبده من كلا الفريقين يمتاز أحمد أمين بأنه هو الوحيد الذي يعالج مسألة الاخلاق بطريقة منظمة وكتاب الاخلاق الذي نشر لأول مرة في عام ١٩٢٠ أدخل ككتاب مدرسي في مناهج المدارس الثانوية وكلية المعلمين - ويرى أحمد أمين أن هنالك عوامل كثيرة يمكن الاستفادة بها للرقابة الاخلاقية كالعامة والعائلة والبيئة، والدين واحد منها، وموقف أحمد أمين من ذلك يمكن أن نقول أنه مبني على النتيجة الطبيعية التي تنمض عن كون الاستاذ الامام عبده يبني الخلق على أسس العقل واللقاة (intuition) فانا نجد أحمد أمين يناقش نظريات الايتورين والميلونية (مذهب السعادة) والرافيين ومذهب المنفعة واللقاة - والنتيجة التي وصل اليها أحمد أمين تشبه موقف يوهانس الهاوس الذي كان يؤمن بالمذهب الكافيني ايمانا قويا ولكنه كان يدعو الى انفصال النظريات السياسية عن الدين أو الدينيات فكان يقول بأن الدولة عليها أن تضمن أسباب الحياة الرغدة المرغمة والسعادة لمواطنيها - فوظيفة الدولة يجب أن ينظر اليها من ناحية المنفعة - والاهتمام

بالحياة الدنيا يتمشى مع الديمقراطية وإذا ما كانت السيادة مصدرها الشعب فبدأها المنظم للسلطة الحاكمة ينبع عن افادتها للشعب.

أحمد أمين يرفض الاخلاق المبينة على التقليد أو العرف وحده فيرى أن الجديد خير من القديم، يقول:

«لو أن الناس جروا على هذا المبدأ (يعني العرف) لم يتقدم العالم عما كان عليه من قديم» (كتاب الاخلاق ١٠٠).

وعنده التقدم يعني نبذ العرف الخاطئ ويقبله بعض الناس كذلك ويصلون بعد انصارا لأرائهم فيلتبس حيلهم كثير من الناس «حتى يحل الجديد الحق محل القديم الخطأ» وخلافا لفكرة الاخلاق العامة نجد أحمد أمين يوافق على الاخلاق اللبائية المبينة على الثقافة التي قال بها الفيلسوف الالماني كانط - فيقول أحمد أمين بأن في كل انسان قوة غريزية باطنة يميز بها بين الخير والشر «ولسنا نحكم على الشيء بأنه خير أو شر نظرا إلى غاية كتحصيل اللذة أو فرار من ألم ... ولكننا نحكم عليه لأن غريزتنا ترشدنا إلى ذلك بقطع النظر عما ينتج من النتائج ...» (كتاب الاخلاق ١١٩).

وعلى كل فان أحمد أمين يقبل نظريات المتحررين للإرادة البشرية أو الهندسية الاجتماعية ولكننا نتخذ طريقا وسطا - فيقول:

«وان أحسن أنواع الشكر لله الخضوع لقوانين الأخلاق والعمل بما تقتضيه، ذلك لأن الله خلق هذا العالم وجعل سعاده مرتبطة بأشياء من صدق وعدل وأمانة ونحوها، وشقاءه وفناءه في أضدادها، ثم أمر بما يوصل إلى السعادة وسماه خيرا، ونهى عما يجلب الشقاء وسماه شرا، وتلك الامور التي توصل إلى السعادة هي بعينها قوانين الأخلاق» (كتاب الاخلاق ٢٣٢).

والواقع أن تحسبه بالتقوى الاسلامية التقليدية دفعه الى التصف، فانا نجد آخر الأمر لا يبي اخلاقيات على العقل والثقافة فقط بل يتخذ موقفا مختلفا بعض الاختلاف عن الذي كان يقفه في أول عهده.

ومن الجدير بالذكر أن أحمد أمين لم يتم باعادة النظر في الاخلاق بعد نشر كتاب الاخلاق له، ثم إن مجموعة كتبه وفيض خاطره يمتدح على عدة مقالات عن الاخلاق، ولكنه يولى اهتمامه البالغ بالمعالجة المنظمة للتاريخ الثقافي الاسلامي. وفي هذه الناحية يبدو أن أحمد أمين يذهب إلى ما ذهب اليه المؤرخ الفيلسوف «ترولتش» Troeltsch الذي قال:

«من أجل الوقوف على ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا والعالم العقلية الخارجية وصلبنا بنا يجب علينا أن نستعمل الاداة الرئيسية ألا وهي التاريخ العلمى وليست الاخلاق العلمية التي أصبحت عديمة الجدوى».

وهكذا فانه يركز بحثه على المعزلة ويتخطى قدما فيها دون أن يعرض عن افكار محمد عبده وعلى عكس ذلك فانه يوسع دائرتها من حيث أننا نستطيع أن نقول بأنه يفتح آفاقا جديدة للحركة الاصلاحية للاستاذ الامام.

وبما أن جهود الاستاذ الامام عبده حظيت بنجاح على كبير فان محاولته للتوفيق لم تلق النجاح المقصود كما حظى به النظام الفكري للامام الغزالي - ويعود سبب ذلك في زمنه الى أن نظره الخلقية لم تكن أعمق وأشمل من نظرة الامام الغزالي، وذلك لان مسألة التزهد للقرآن الكريم لم تكن قد بلغت من الحلوة ما بلغت في عهد محمد عبده، فقد كانت الفكرة الاسلامية الجديدة للرحى تحتل أبرز مكانة بين المفكرين المسلمين نتيجة للحملات الانتقادية التي كانت توجه ضد الانجيل من قبل الباحثين الاوربيين وبما أن أحمد أمين لم يمد نفسه في وضع يستطيع فيه أن يبيح محل مرض لهذه المسألة فان قادة الحركة التجديدية المتحررة مثل طه حسين ومحمد أحمد خلف الله كانوا من القلة القليلة التي كادت تخرج عن دائرة أتباع الاستاذ الامام عبده.

وبما فلفت النظر إليه أن أحمد أمين يعالج تراث الاستاذ الامام الكبير بمعالجة في غاية الدقة وقد نسى له ذلك بسبب نظره المعتدلة فيما أنجزه من الاعمال العقلية لان عملية التوفيق التي قام بها أحمد أمين لم تكن عبارة عن جمع بضعف او التقاط اشياء من هنا وهناك وإنما تستهدف الى التوفيق الجري بين العلوم الشرقية والغربية، وعلى الرغم من ذلك فان الذي انتهى اليه أحمد أمين في مجهوداته الفكرية لم يعتمد كونه من وضع جديد محتاط للحركة التوحيدية التي مهد طريقها الاستاذ الامام عبده، فإنا كثيرا ما نجد ياتي بأعمال الاستاذ الابتدائية في ثوب جديد يدل على ادراكه الممتاز للوجهة الاساسية الكامنة فيها - انه يبذل جهدا شاقا مضنيا لتوضيح آراء الاستاذ الامام وضوحا تاما ولكنه يقف عند حد يتمنه من استغلالها استغلالا تاما وبالعكس فان اعادتها بصورة مستمرة تدل دلالة واضحة على الوضع الملهل الذي كانت فيه الحركة التجديدية القديمة كما وأن خليج الخلاف بين التفكير التقليدي والتفكير الجديد أصبح يتسع نطاقه بعد الجيل التالي للاستاذ الامام محمد عبده.



وَرَقَّةٌ مِنْ تَارِيخِ الاسْتِشْرَاقِ فِي الْمَآئِيَا:

# يُولْيُوسُ رُوسْكََا

## البحانة الكبير في العلوم الطبيعية العربية

بقام: محمد يحيى الهاشمي

ولد يوليوس روسكا في ٩ شباط ١٨٦٧ في مدينة بول Buhl من مقاطعة بادن - بادن، فعدا عن الارث العلمى والفنى فقد كان ينحدر من سلالة مقاومة لشدادت مجدة في العمل وكانت مقبلة في رايندورف - غرافهاوزن Rheindorf - Grafenhausen من دائرة اتيهام Amt Ettenheim وكانت ولادته المرأة الرقيقة الاحساس محبة للأزهار وبمحبة نادرة عرفت توجيه اولادها.

بعد ان اتمى يوليوس روسكا دراسته الابتدائية والثانوية زار الجامعة للدراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية، وبدون اية صعوبة وصل الى هدفه. ولم يكن مرتاحا نفسيا، لان التضارب بين العلم والايمان استيقظ في نفسه، شأنه في ذلك شأن جميع احرار الضمير في العالم. ومنذ ان كان طالبا في المدرسة كان باحثا عن الله وكان دوما يفكر بذلك السؤال: لماذا لم تتجاوز رسالة الخلاص المسيحية دائرة الشعوب الجرمانية والرومانية والسلافية؟ وكطالب جامعى اهتم كثيرا بالبحث النقدى لتاريخ الاديان، وكان يقبل على التعلم بعطش لا يترى، وكان يريد عمل الانسجام بين عيشه وعلمه. وبحماس زائد كان يهتم بمعرفة الأمم وتاريخ الحضارات وتاريخ تطور البشرية. ولقد قاده حب الكشف عن لئز العالم الى المسائل الدينية، وهكذا اخذ ينمو في نفسه حب التعرف على الاديان العالمية وكتبها المقدمة بلغاتها الاصلية، لان الترجمة مهما كانت محكمة فقد تفقدنا شيئا من خصائصها. وهكذا عزم عزمًا اكيدا على الاطلاع على اللغات التي كتبت بها هذه الوثائق الدينية الاصلية، ولقد نفذ المخطط بهمة لا تعرف الكلل والملل، وان العالم ليدن لعزمه على ذلك بالقاء

ينحدر العلامة يوليوس روسكا من اسرة عريقة، لعل منشأها ايطاليا، تهتم بالعلم والتربية بصورة خاصة؛ فقد كان والده فرديناند معلماً متعدد الجوانب في مدينة برناو في الغابة السوداء، وفي مدينة بول Buhl من مقاطعة بادن، وبما يذكره الرسام هانس ثوما Hans Thoma بأنه زار مدرسته للرسم ويملك حفيده البحاث في المهر الاكروفي هيلموت روسكا صورة من الغابة السوداء من رسم هذا الرسام وذلك بتاريخ ١٨٦٠/٩/٥، وفي كنيسة غرافهاوزن، بالقرب من جبل كايزرشول (كرسى الامبراطور) يوجد سجل عقد قران الجد الاصل نيقولاوس روسكا في عام ١٧٤٨، ومن المظنون ان هناك صلوات بين نيقولاوس روسكا ورسام الاشخاص كارلو فرانسيسكو روسكا الذى عاش (١٦٩٦-١٧٦٩)، وان اسم روسكا يتردد بين سويسرة الجنووية وايطاليا العليا. ولم يكن الجد الاصل الكبير هو الفنان الموهوب الوحيد، بل هناك اربعة عشر شخصا ممن ينتمون الى هذه الاسرة كانوا مجارين ومخاتين ورسامين والذين جاء اسمهم في قاموس الفنانين في سويسرة. وقد قرأ كثير من قصة حياة رئيس الواعظين نيقولاوس روسكا في قصص بناتش Jürg Jenatsch المائدة لمؤلفه دكتوراد فرديناند ماير وقد ولد هذا الرجل الدينى احدى روسكا في عام ١٥٦٠ ومات شهيداً في عام ١٦١٨. وقد كتب راهب يحمل اسم «روبيرت» قصة حياته الى درجة وصل بها الى حد الاساطير، وان نسخة منها كانت توجد في مكتبة الدولة في برلين. وكان علامتنا يفتخر بحمله نفس الاسم الذى كان يحمله رئيس اساقفة كنيسة كومو Como اعني يوليوس روسكا.



الاستاذ يوليوس روسكا  
إمارة: الأستاذ محمد يحيى المالحى.

In diesem Sinne, mit einem  
korymben "Glocke auf", gestrichelt  
für besten Ihr  
Ruska

خاتمة رسالة من الأستاذ روسكا Ruska إلى الأستاذ محمد يحيى المالحى.

عن اصل وانتشار العلوم العربية حتى انتقالها الى  
عالم الغرب.

لم يكن الطريق امام هذا العالم الفنى مميدا، فان الحفاظ  
ومستشار المدينة قررا بان روسكا لا يمكنه ان يكون  
استاذا رسميا في المدارس الثانوية في هايدلبرغ الا اذا  
استغنى عن مسئلة الجاهلي، وبقلب جريح ونفس حزينة  
خضع لهذا الامر، وودع الشرق، وكان آخر عمل قام به  
هذا الجبال ان ترجم وكتاب الاحجاره من «جانب  
في الخلفيات» لتركيا بن محمد القزويني وشرحه وذلك في  
عام ١٨٩٦.

لكن، كيف يمكن انقاذ الميل الاصلية في الانسان؟  
هنا الخلق: فيضا محميا، يحول في النفس تواقا للتلفق...  
وهل يقوى اليبوع على كبت الامواه المختزنة في احشائه،  
ام هل تستطيع الشمس ان تحول دين انبثاق الضياء؟  
وهكذا ايضا فان هذا الرأس المشتعل يحب البحث  
لا يمكن اطفاء شعلته، فقد كان يكرس اوقاته خارجا  
عن عمله الجبر على اذائه في البحث في تاريخ العلوم،  
ومع ذلك فقد كان يقوم في تفهم ما اوكل اليه من تدريس  
العلوم الطبيعية على اساس تربوي نادر، لان تاريخ العلم  
يعطينا مقدرة تدريسية في تفهم كيفية تطوره. وقد كان

انوار كشافة على تاريخ الكيمياء الذي لم يكن في يده  
حياته العلمية ضمن تفكيره، وحتى قبل ان يبدأ عمله  
كدرس للعلوم الطبيعية في مدينة هايدلبرغ درس اللغة  
العربية والعبرية عند رودولف برونوف Rudolf Brinnow  
ووسع معارفه اللغوية باللغات السريانية والآشورية والفارسية.  
وعندما غادر رودولف برونوف مدينة هايدلبرغ مغادرة  
نهائية بقي تدريس مثل هذه اللغات مدة من الزمن  
في هذه المدينة فارغا، فولى يوليوس روسكا وجهه شطر  
البحثة الكبير في العهد القديم آدالبرت مركس Adalbert  
Merx الذي علم اى طير نادر قد حط عنده. بيد أن  
هذا الاستاذ اشار على تلميذه وصديقه الصغير تحويل  
انجازه من دراسة علم الاديان الى تاريخ العلوم بتقديره  
الطروحة عن الرياضيات السريانية نظرا لخطوطة في هذا  
الموضوع موجودة في مدينة غوتينغن، وقد اصفى روسكا  
للتصحيح وفي كانون الاول من عام ١٨٩٥ قدم الاطروحة  
المذكورة بعنوان «المربعات من كتاب عاوارات لسرفيوس  
ابن شاكو "Quadrivium aus Servus bar Schaku's  
Buch der Dialoge" عند الاستاذ بيتسولد Bezold وبهذه  
الطروحة سلك انجازه جديدا لاعماله العلمية من اجل  
المستقبل بصورة اساسية. وكانت تخامرة فكرة البحث



يعلم علم المستعدنات Mineralogie والجولوجيا والرياضيات ، وبعد سنين قلائل اهتم باللغات والفلسفة وفن التربية. ونظرا للدراسات العديدة والمتنوعة التي قدمها فن الصعب على من لم يكن يحمل نفس روح الشمول والمهذب القانوسي<sup>(١)</sup> فهمه او تصنيفه ضمن اختصاص معين. ومع ان العلم روسكا كان ناجحا في مهمته كمدوس للعلوم في المدارس الثانوية فلم يكن متراح الضمير ، وبعد فراق العلوم القديمة مدة اثني عشرة سنة عاد اليها ثانية في دراسة ما يسمى كتاب الاحجار لارسطوطاليس ، وكان يوم متابعة دراسته في هذا الخصوص ، ولكن توسع الاسرة ونمو الواجبات الملغاة على كاهله كانت المانعة من تفرغه.

من هذه المحبب ظهرت بعض الدراسات له اذكر منها دليل المستعدنات Leitfaden der Mineralogie الله لطلاب التجهيز عام ١٩٢٠ يحوى جميع ما يلزم ان يعرفه الطالب الثانوى عن هذا العلم الجليل بتيسيط واضح ومع ذلك كان ملما بالموضوع جهد المستطاع ، كما اطلنى على النماذج من المقوى التي قام بصنعها لطلابه لايبراز الاشكال الهندسية للبلورات الطبيعية امام الاعين مع ما رافق ذلك من عرض نماذج من المقرازات جاذبا للتلميذ الى محبة هذا العلم ، عدا عن الرحلات المدرسية من اجل المشاهدات الجولوجية ، فضلا عن ذلك فهناك دراسات عن العلوم الطبيعية بالذات كالجوانبات الفكرية من وجهة التشريح المقارن وعلم الحياة ، والمناسبات بين علم المستعدنات والجولوجيا والكيمياء ، وكما ان هناك دراسات اخرى مثل الكتاب الانكليزي من مجال الفلسفة ، وبعض تقارير قدمت الى مؤتمرات اللغوين ، ومقالات تربوية مختلفة ، ومع ذلك تتخلل هذه الفترة التي دامت من ١٩٠٢-١٩١٨ مقالات ودراسات عديدة عائدة لتاريخ العلوم العربية بصورة مدهشة ، ولقد احصيت في الخطاب الذى القاها لوبنويش<sup>(٢)</sup> تكريرا لعلامتنا عند بلوغه السبعين وذلك في عام ١٩٣٧ ، وهى تبلغ حتى عام ١٩١٨ مائة وثلاثة دراسة<sup>(٣)</sup>.

لقد حدث حادث محزن لم يكن بالحسبان هز حياته هزا مربعا ، ان عمه ولد زوجته العلامة الكبير المستشار ادلبرت مركس المار المذكور وقع في حفرة القبر ميتا أثناء تأييد صديق له على قبره. كانت هذه المأساة ضربة كبيرة من اجل العلم ، لان هذا العلامة المركس كان يقوم باخراج السفر العظيم لوالانجيل الاربعة الاساسية ، ولا يمكن الثقة باحد لايخراج هذا السفر العظيم الا بوليوس روسكا ، وان الدراسة الاخيرة التي انتهت من انجيل يوحنا هي باللغة السريانية ومفسرة بمخطوطة باليمبست Palimpsest وقد عثر عليها في دير سيناء ، فكانت تنتظر من يتولى اخراجها ايضا الى الطبع بصورة صحيحة. من اجل ذلك منح اجازة لقيام بهذه المهمة الشاقة ، بيد ان الاجازة لم تكن كافية فلما طالب بالتمديد ثانية رفض طلبه ، ولكنه في هذه المرة لم يخضع للامر الواقع ولم يقطع عمله ، فاستغل منه ومن التدريس بالثانوى وذلك عام ١٩١٠ ، واستغنى بذلك عن حقه من التقاعد وعن خدمة عشرين عاما. ولو كان روسكا من امة لا تقدر البحث العلمي لقضى على نشاطه واصبح نسيا منسيا. نعم لقد اسند امامه طريق ضيق ، ولكن انفتح امامه طريق واسع ، فاعتمد بعمل بما تتوق اليه نفسه ، وانكب على اخراج السفر المذكور لعمه ، وقدم دراسة عن كتاب الاحجار لارسطوطاليس<sup>(٤)</sup> كدكتوراه ممتازة<sup>(٥)</sup> ، وقام بمحاضرة نموذجية في الجامعة في عام ١٩١١ وذلك عن علم المستعدنات عند العرب. وعلى ضوء مقارنة المخطوطات العربية واللاتينية تبين لروسكا بأنه يلزم البحث عن اصل هذا الكتاب في مراكز الدراسات الطبية السريانية الايرانية ، وكبرهان لا يقبل الجدل على ذلك وجد معالجة المستعدنات لها طابع ايراني ، وكثيرا ما جاء ذكر ايران وخراسان والمند والصين كمكان لبعض الاحجار السحرية ، ففى بعض الاحبار حسب دراسة روسكا يظهر لنا مؤلف كتاب الاحجار المذكور طبيبا قد زاد في ذكر الاحجار التي لها تأثير طبي ، وفي الاحيان الاخرى يترامى لنا كأنه مؤمن بالاعاجيب ، وجمع اخبار الاحجار السحرية وغير ذلك.

berger Oberrealschule mit Realgymnasium, 9.2.1867—12.2.1949.

د. ويندريش: يوليوس روسكا وتاريخ الكيمياء R. Winderich: Julius Ruska und die Geschichte der Alchemie, Festgabe zu seinem 70. Geburtstag am 9. Februar 1937, Dargeboten von der Deutschen Gesellschaft für Geschichte der Medizin, Naturwissenschaft und Technik, Berlin 1937.

(٢) هي ما تسمى «هابيليتاسيون» Habilitation والتي يحل لها منها الترشح لارتذاة الجامعة.

(١) المهدف القانوسي: نسبة لقانوس اثر غوته للشمير.

(٢) اى مدين لهذا الخطاب الآل الذكر ، وذكرى مرور مائة عام على المئوية الثالثة هابيلدورغ الذى حرره ابن علامتنا هيلوت روسكا رئيس معهد المهر الألكتروني في جامعة درسلونف ، وما ارسله ل ارنت روسكا رئيس معهد المهر الألكتروني في جمعية ماكس بلانك في برلين من العلوات: هيلوت روسكا ، ذكرى الأستاذ روسكا

Helmut Ruska, Zur Erinnerung an Prof. Dr. phil. Dr. phil. h.c. Julius Ruska, Festschrift zur 100-Jahr-Feier der Heidel-

كان روسكا يطرح دوما على نفسه السؤال الآتي: عن اى طريق اخذ العرب علمهم؟ وكيف انتشرت كتاباتهم وخاصة في الغرب المسيحي اللاتيني الذى كان فقيرا في العلم؟ ولم تكن النتائج التي وصل اليها مرضية، بيد انه بقي آمنا لنفسه، رغم ان في دروسه في الجامعة لم يعط الا اللغة العربية للمبتدئين ودراسته القرآن. وكان سلفه في تدريس العلوم الشرقية كارل هاينريش بيكر Carl Heinrich Becker الذى اصبح فيما بعد وزيرا للمعارف، وهو الذى فهم روسكا في رسالته العلمية الجليدية واستعان به برلين ليتولى ادارة معهد البحث في تاريخ العلوم الطبيعية وذلك في عام ١٩٢٧ والذي توسع في عام ١٩٣٠ الى معهد البحث عن تاريخ الطب والعلوم الطبيعية تحت ادارة العلامة الكبير باول ديبغن Paul Diepgen رئيس الشرف للجمعية الألمانية لتاريخ الطب والعلوم الطبيعية والصناعة والتي في الشرف ان اكبر عضوا فيها وان اشترك في عدة مؤتمرات لما مقدما ابحاثا تتعلق بتاريخ العلوم الطبيعية العربية.

اتصلت بهذا المعهد قبل توسعه وغالب الظن انه كان ذلك في عام ١٩٢٩. اما الدافع لهذا الاتصال فهو الحادث الآتي: كنت اقدم فصحا في الكيمياء غير العضوية عند الاستاذ الكبير ماناش Mannich مدير معهد الصيدلة في جامعة برلين، وفي اثناء الفحص سألني عن اماكن وجود الحديد في العالم، وذكرته في وجوده في ألمانيا وفي اوربا، ولما سألني عن وجوده في البلاد العربية لم اعرف اعطاء جواب له، لاني لم اكن على علم في ذلك الوقت، فنصحنى ان اهتم ايضا ببلادي لأن العلم الذى تعلمه في الغرب يلزم ان تعود فائدته على بلادي ايضا ووطنى، فذهبت توأ الى مكتبة الدولة في برلين في شارع وتحت ظلال الزيزفونين "Unter den Linden" وراجعت القسم الشرقى منها والقهرس العام الكبير قسم الموضوعات، فعدت على بعض المصادر، ولما راجعتها وجدت ان قسما كبيرا منها من جملة ما اتخذته من المصادر الكتب العربية القديمة مثل والتر شميدت، صاحب دراسة مكامن المستعبدات في العربية Walther Schmidt, Mineralagerstätten Arabiens صدى اتخذ كتاب صفة جزيرة العرب للحائى مصدرا. فقلت في نفسى اذا كان الالمان يدرسون هذه الكتب القديمة مع صعوبة اللغة العربية من اجلهم، فما احزانا نحن معشر العرب ان نقوم بمثل هذه الدراسة وهي مكتوبة بلغتنا وليس من الصعب علينا فهمها اليوم رغم تقدم السنين، فالتصفت بمعهد البحث بتاريخ العلوم

الطبيعية وتعرفت على البعثة الكبير في هذا الموضوع، ورئيس المعهد يوليوس روسكا، فقدم لى عدة كتب من دراسته ودراسة غيره، وكان من جعلتها دراسته القيمة عن كتاب الاحجار لارسطوطاليس، فجلبتنى هذه الدراسة، وفيما اذكر ايضا، رغم مرور اكثر من اربعين سنة، بانى اثناء مرورى في حلقة واير غارنر، بعد ان قطعت شارع تحت ظلال الزيزفون اخذت اقرا المقدمة فاستهتت عبارات المؤلف الحكيمه فيها فاخذت متابعة قراءتها رغم ان الوقت اصبح مساء والنور ضئيلا، ورغم تقدمه العهد على مطالعتها فلا تزال ترين في اذنى كأها الباصرة، وها أنا اقوم بترجمتها الى العربية:

وليست الاشعار البدوية ولا الأدب الذى نشأ بعد ظهور الاسلام هو الذى جعل اسم العرب لاسما في الغرب. اذا اردنا ان نفكر بتأثير الحضارة الاسلامية في الغرب المسيحي، فيجب علينا ان نفكر في الرياضيات العربية والفلك والكيمياء والطب، تلك الفروع التي تعلم منها الغرب يجد ونشاط قوفا عديدا قبل اكتشاف العلوم اليونانية، ولا تزال كثير من التماير العربية المتداولة نتجت عن ازدهار العلوم تحت راية الاسلام، وتعلق الغرب المسيحي من الشرق الاسلامي؟ فهورتي هذه الكلمات فاقبلت على دراسة العلوم العربية القديمة بأشاد العلماء الالمان، وقد طلب منى الاستاذ روسكا ان اترجم كتاب احمد بن يوسف التيفاشي القم من القرن السابع الهجري والرابع عشر الميلادى في القاهرة واصله من مدينة قصصه من اعمال تونس والذي هو بعنوان ازهار الافكار في جواهر الاحجار، والذي كان يوجد منه عدة مخطوطات في غرنا وبرلين والقاهرة. وكان ذلك بعد فترة تأسيس المعهد الكبير في برلين وذلك في عام ١٩٣٢ والذي اصبح يضم معهد تاريخ الطب ايضا، ومكنت فيه حتى اواخر عام ١٩٣٣، وقمت في ترجمة كتاب التيفاشي المذكور ولا تزال الترجمة محفوظة عندي لم اجد الفرصة اللازمة في تنقيحها ووضع الشروح اللازمة ونشرها، كما قمت بعمل دراسات مطولة عن المستعبدات العربية نشرت منها بعض الفصول. ولكن بعد ذلك سافقتي الاقذار الى جامعة بين، لان جامعة برلين في توافق مع المزج بين العلوم الطبيعية المصرية والعلوم القديمة رغم ما بلته استاذنا رئيس قسم تاريخ العلوم الطبيعية من جهود، ولعل موت المستشرق المار الذكر بيكر كان السبب في ذلك، فوافقت على هذا المزج جامعة بين، فحولت وجهى اليها، وهناك قلمت اطروحتى عن منابع كتاب الاحجار لليربوني،

مع مواد الفحص علم المستندات والعلوم الإسلامية والفلسفة، وهكذا لم أقطع صلي بالعلوم المصرية ابداً. عدت ثانية الى برلين وذلك في أواخر عام ١٩٣٥ وانصلت بمعهد تاريخ العلوم الطبيعية ثانية وعندما قدمت للاستاذ روسكا اطروحتي والتي فيها تعليق على كتابه الاوهو كتاب الاحجار لاسطوطاليس هنائي ورحب بدراستي، وفي حقه ينطق وما تواتر عن الامام الشافعي قوله للمأثور: «إذا كنت في مجلس لا أبالي أن انطق الله الحق على لساني أولسان خصمي». أخذت بعد ذلك بدراسة مؤلفات روسكا وخاصة المتعلقة بتاريخ الكيمياء. ولقد قام هذا العلامة بكشف جديد في هذا المضمار، ففي ربيع ١٩٣١ عندما كان مقبلاً في غوتينغن صرّ على مخطوطة سر الأسرار للرازى، ولكن قسماً من هذه المخطوطة وترجمتها الى اللغة الألمانية لم تظهر الى النور الا في عام ١٩٣٥ العام الذي عدت فيه الى برلين، ولعل هذا الكتاب الذي اخرجته روسكا هو من أهم الأعمال التي قام بها لكشف النقاب عن تاريخ هذا العلم، لأن هذا الكتاب هو كتاب تجارب محضة بعيد عن الطلاسم والخيالات والافانز، ولم أتوقف لدراسته نظراً لقصر المدة التي بقيتها بعد ذلك في ألمانيا واشتغالي في أمور غير تاريخ الكيمياء وسفرى ايضا الى الوطن وزيارتي مناطق اسكتندنافيا، ولكني قمت بشئ من هذه الدراسة عندما بقيت في معهد البحث في تاريخ العلوم الطبيعية التابع لجامعة ميونيخ في التحف الألمانية سلسلة من المحاضرات عن تاريخ الكيمياء العربية في صيف عام ١٩٦٧، بعد أن فرغت من زيارتي للمعاهد العلمية الألمانية بدعوة من التبادل الأكاديمي الألماني في باد غوديسبرغ. وكان جل اهتمام المعهد بالمواد التي كان يعرفها الأوائل من العرب والمعميات التي قاموا بها. أما الطلاسم والسحر التي وردت عند المؤلفين القديسي فقد كان اهتمام المعهد بهم قليلاً، لأن هذا المعهد التابع للمتحف الألماني المذكور بهم يتطور العلوم من الوجهة الواقعية، أما الأمور الأخرى فهي خارجة عن نطاق اختصاصه. وقد استمتعت بلقاء هذه المحاضرات على دراساتي في المخطوطات القديمة ودراسات روسكا وكذلك دراسة أيلهارد ويدمان عن الكيمياء عند العرب: Eilhard Wiedemann, Zur Chemie bei den Arabern, Beitr. z. Geschichte der Naturwissenschaften XXIV., Erlangen 1911. وما يخص تاريخ الكيمياء فقد أخرج روسكا كتابين: الأول عن مشكلة خالد بن يزيد بن معاوية واشتغاله في الكيمياء وخاصة الكتاب المنسوب إليه كتاب القراطين،

والثاني عن جعفر الصادق الامام الشيعي السادس، ففي الكتاب الأول يقول روسكا بأن الإنسان لا يقدر أن يبنى الصلة ولا أن يشيئها والمصادر العربية هي الوثق من المصادر اليونانية، وما يذكره رواية عن خالد، الشعر المأثور:

هو الحجر المصاب بكل ارض  
وفي الأسواق تلقاه حقيراً  
يضمن به الجواد على أخيه  
إذا اضحى به يوماً خبيراً

أما الكتاب الثاني فينبى روسكا علاقة جعفر الصادق بالكيمياء ويعد هذا الكتاب متمحلاً ورغم كل شئ يقوم على دراسته بكل دقة وإمانة وزراعة ضميم، وتبقى جميع هذه الآثار كوثيقة هامة في تبيان العمل الجدي والدراسة المتقنة لهذا الحقن التي نحن بأمرس الحاجة إليها. وما يؤسف له حقاً أن مخطوطات جابر لم تخرج الى النور على الطريقة التي قام بها علائقنا المذكور مع الترجمة والشرح لفتت باب البحث على مصراعيه في هذا الخصوص<sup>(١)</sup> لأن الدلائل تشير على وجود كيمياء عربية في القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي رغم وجود زيادات متأخرة.<sup>(٢)</sup>

إن الصعوبة هنا في معرفة اثر جعفر الصادق في الكيمياء، لدى دراستي الأماكن التي تنوه بجعفر في الكتب المنسوبة الى جابريين أن هذه النصوص ليست في العمليات الكيميائية بل بالإرشادات الدينية، ولدى فحص المذهب الجعفري حسب الوثائق المتواترة عنه، نجد التوافق فيما يذكروه جابر عن إمامه في الإرشادات الدينية فذهب جعفر<sup>(٣)</sup>.

(١) إن ما قام به بارك كراوس في إخراج مخطوطات جابر لا تتجاوز بعض متعلبات كلية وتحتاج الى دراسات جدية، من أجل ذلك لا يمكن إعطاء الحكم النهائي الا بعد إخراج جميع المخطوطات المنسوبة لجابر على الخط الذي أخرج به روسكا مخطوطاته. أما الاسكالم الجنية في غير ذلك فلا يمكن أن تكون لها قيمة الا بعد دراسة النصوص بدقة تامة.

(٢) راجع كتاب الإمام الصادق لهم الكيمياء ودراسات المادو منها سابقاً، وقد روى روسكا من ابن خلدون: ... وعند ظهور ثلاثة من المتصوفة وجنهم وحشد هذا العلم في اللغة ... وعند ظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر وتكوين الكعب والاضطرابات ومزاعمهم في تنزل الوحي من الفرس وتزويته، وزعموا أن النكال الإلهي مظاهرة أرواح الافلاك والكواكب وأن طابع الحروف واسرارها سارية في الأشياء فهي سارية في الأكران من لدن الإلهام الأول تنتقل في الهواء وترتب عن أسرارها، فعند ذلك علم أسرار الحروف وهي من تقارير علم السحرة.

(٣) أن لم أقل من علاقة أكيدة بين جعفر الصادق وجابر بن حيان، بل ذكرت أنها مكتبة ذلك في الإرشادات الدينية، انظر كتابي الإمام الصادق لهم الكيمياء وبعد الكيمياء العربية، المصادر المتقدمة، وهكذا يقع في هذا

الأرض ليس الا صورة عالم السماء، وهنا تكون في المراكز الطبية السريانية الفارسية وفي المدن الكيرية في الشمال والشرق من المملكة الساسانية وفي الطرقات المؤدية الى شوب آسيا المركزية. ومن هناك كانت تنسب منذ القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي تيارات من الفلكيين والمؤمنين بالأساطير الفلكية (النسجيين) والأطباء والكيميائيين ففقدت كانت هذه المراكز المحركات الفكرية للحضارة الإسلامية.

ان دراسة تاريخ النشادر افضى بعلمتنا بصورة اضطرارية الى دراسة جابر بن حيان ذلك الفيز في تاريخ الفكر الاسلامي، في البدء اقتصر روسكا على مطالعة ما اخرجته برتولت Bertholet من كتب السبعين المشهورة. وفي مجرى عمله استلم بناء على رجائه من البحالة في تاريخ الطب الاسلامي ماكس مايرهوف في القاهرة<sup>(٨)</sup> صور مخطوطات جابر التي اقلت انوارا لكشفه على هذا الموضوع، وقد كانت هذه المخطوطات مشحونة بجانب الملاحظات الكيميائية والصناعية بالافكار الفلسفية، وكانت الفكرة الهامة عند جابر مشكلة العلية ويراهما في فهم النظام وان الاختلافات الكيفية في الكون ترجع الى الكمية<sup>(٩)</sup>.

لمعرفة دور الكيمياء في القرون الوسطى الارورية افضى به البحث عن كتاب ما يسمى «صراع الحكماء» Turba Philosophorum والذي كان معروفا في عالم الغرب في القرن الثاني عشر، ولكن لم يقطن احد بقيمته، ولكن روسكا برهن انه ترجمة لاصل عربي، وان الاساسي التي وردت فيه والتي كانت غير مفهومة في النقل تشير الى الاعتراف بالاسلام وذكر السورة ١١٢ من القرآن الكريم «قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد»<sup>(١٠)</sup>.

لقد وجد في هذا الكتاب اسامي يونانية محرفة، وكانت بعد معرفة التشويش الذي حصل في النقل اسامي فلاسفة اليونان امثال انكسمندوس وكسينوفان وامبولوقليس وغيرهم، كما وجد بعض اسامي مستعذبات مثل غادنيا (غاديا

ان في اخراج كتاب الكيميائيين العرب رقم ٢ Arabische Alchemisten II, Heidelberg 1924 اى الكتاب المنسوب لجعفر الصادق مد به روسكا فراغا كبيرا، رغم انه نفي تماما علاقة الامام بالكيمياء. ويعد روسكا الصعوبة في فهم الكيمياء القديمة لخفاها بالرموز، ولتسهيل الموضوع اخرج بالتعاون مع ايلهارد ويدهمان والاسامي المستمرة الكيميائية J. Ruska-Eilhard Wiedemann, "Alchemistische Decknamen", Sitzungsberichte der phys.-med. Sozietät Erlangen, 56, 1924. وما وجهه انه يوجد للاسم الواحد عدة اسماء مستمرة كالنشادر مثلا الذي يسمى العقاب والطير الخراساني والمشح الطائر وبصاق الاسد وغير ذلك، وكذلك الامر في الزئبق وغيره.

اثناء بحث روسكا بتاريخ النشادر وجد النص الاصل لكتاب اللوح الزبرجدي Tabula Smaragdina والذي كان معروفا في ترجمته اللاتينية، ويعتبر هذا الكتاب كتابا مقدسا من اجل الكيميائيين القدامى، وان صوره لا يمكن ان يستغنى عنه اى طالب لصناعة الكيمياء. وان آخر كتاب له اثر في الاخلاق الهرمسية، ولكن هل هذا الكتاب من اصل عربي؟ وهل انتقل بعد ذلك الى اليونانية ووصل عالم الغرب عن طريق اللاتينية؟ ولقد على هذا السؤال جواد روسكا مسافة قرنين من الزمن في تاريخ الكيمياء ووجد ان هذا اللوح الزبرجدي في صيغته الاصلية هو ثمرة نهاية مخطوطة تبحث في الكون، وقد جاء ذكره ايضا في اسفار جابر، وينسب تفسير اسرار الخليقة وهمل الاشياء الى بليمنسوس الطوفاني Apollonius von Tyana<sup>(١١)</sup> ولم يعرف ان هذا العالم الفيزياغوري اشتغل بالكيمياء، اما فكرة تأثير العلويات على السفليات والكواكب فيزمن ان تكون ضمن الحضارة المصرية اليونانية، وبذلك نصل الى الفكرة القديمة بأن العالم

الخطا وماتين يستره في مجلة المستشرقين الآلانية انظر:

Martin Plesner, Gābir ibn Ḥayyān u. die Zeit der Entstehung der arab. Gābir-Schriften, ZDMG, Bd. 115, Heft 1, 1965.

(٧) ابريلقيوس الطوافي: عاش هذا المفكر اليوناني في عام (١٠٠ ب.م.). وقد جاء ذكره عند عالم الاسرار في ذكره على الاسرار، راجع مقال في مجلة المجلات الاثرية السورية، ج ١٥، ١٩٦٥.

M. Y. Haschemi, Die griechischen Quellen des Steinbuches von al-Beruni, Les Annales Archéologiques de Syrie, Damas 1965, Vol. XV, Tom II, p. Vgl. W. Windelband, Lehrbuch der Geschichte der Philosophie, Tübingen 1935, p. 179, J. Ruska, Tabula Smaragdina, Heidelberg 1926, p. 164.

(٨) من تاريخ حياة هذا البحالة في تاريخ الطب العربي والذي عاش في القاهرة كليبيو، وتوفى فيها عام ١٩٨٥، راجع مقال جيزلا كيرشر، والالان وتاريخ الفسلفة العربية، ذكر من ١٣، راجع مقال J. Ruska, Turba Philosophorum, Quellen und Studien (٩ z. Geschichte der Naturw. und der Medizin, Bd. I, Berlin 1931.

(١٠) وقد وجد تلميذ روسكا يمل كرايس هنا افكارا اسعابية، وقد كتبنا في اوله في كتابنا، الامام الصادق مالم الكيمياء، المصدر المتقدم، اما به الكيمياء في الحضارة العربية فيزمن ان تكون قبل القرن التاسع الميلادي، انظر المصادر السابقة.

— الأحمد، بوريتيس (حجر القداح)، والسندروس (كبريت الزئبق) وغير ذلك. ولم يكن التصير عن طريق الكيمياء اليونانية بل العربية، ويشير أيضا إلى موز عديدة في هذه المخطوطة وأرشادات عملية عديدة. وكل هذه الدراسات هي في الحقيقة مقدمة للرسالة الرازي. ان العمل العظيم الذي قام به روسكا في تاريخ الكيمياء العربية هو اظهار كتاب سر الاسرار للرازي الموجود بصورة مخطوطة في مكتبة غوتينغن الى ضوء النهار وترجمته الى اللغة الألمانية مع التفسير والشروح، وبذلك يلقى انوارا كاشفة على هذا الموضوع بصورة واضحة جلية. وقد كان قد انتهى روسكا من هذا السفر الكبير بصورة عظيمة قبل سنوات من بلوغه سن السبعين وذلك في عام ١٩٣٧. ولقد تعاون كل من دار نشر يوليوس شبرنغر Julius Springer في برلين ومعهد دراسات تاريخ الطب والعلوم الطبيعية في نفس المدينة لاختراع هذا السفر الرئيسي للرازي مترجما إلى اللغة الألمانية، وقد سبق ذلك مقال نشره في مجلة الاسلام الألمانية (عدد ٢٢-١٩٣٥ ص ٢٨١-٣٧١) بعنوان «الكيمياء عند الرازي»، وكذلك اخراج فصول ثلاثة من كتاب الرازي المذكور، وكتاب الشروب (جمع شب) والاملاح والسفر الاسامي للكيمياء<sup>(١٠)</sup>. وتكرما لخدماته اخرجت دار النشر المذكورة الترجمة الألمانية الكاملة مع الشروح والتفسير لهذا الاثر عند بلوغ روسكا السبعين وذلك في عام ١٩٣٧<sup>(١١)</sup>. ويذكر روسكا نفسه في مقدمة كتاب الرازي الاخير ما يلي: فويظهر ان جميع مصادر الكيمياء من مواد وآلات ومنهج واعمال والمصادر اللاتينية لجير Geber<sup>(١٢)</sup> يمكن ارجاعها الى مصادر كتاب الرازي (سر الاسرار).

نعم ان بعض النتائج العلمية التي اتي بها روسكا قد تبدلت اليوم، وتبين ان الكيمياء العربية هي من تاريخ اقدم

(١٠) Die Buch der Alaune und Salze. Das Buch der Geheimnisse der Geheimnisse, Quellen und Studien z. Geschichte der Naturw. u. d. Medizin, Bd. VI, 1937, Berlin, XII.

(١١) تختلص نصوص الكيمياء في مخطوطات جابر بن حيان العربية عن ما تواتر من جابر وجبره من المخطوطات اللاتينية في الكيمياء، ويرجع روسكا هذه النصوص الاخير للرازي. يده ان هولياد يشير بان مصادر جابر اللاتينية هي ليست من كتب جابر بل ما دونه ابلغاني من جابر، راجع مقال هولياد عن الكيمياء في القرنين القوطي الاسلامي، اطروحة التعليل المقدمة بجامعة لندن ١٩٥٤.

B. J. Holmyard, Alchemy in medieval Islam, Endeavour, Vol. XV, 55, July 1955. M. Tashiri (Jildaki) Thesis approved for the Ph. D. degree University of London 1954.

ما كان يقطن، حتى انه من المحتمل ان تكون شخصية جابر شخصية حقيقية عاشت في ذلك الزمن المتواتر الى القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي، نظرا للمخطوطات العديدة المكتشفة حديثا<sup>(١٣)</sup>. حتى ان انتحال كتاب ارسطوطاليس قد عرفه محمد بن احمد البيرقي من القرن العاشر والحادى عشر الميلادي، الذي يقول في كتابه الجواهر في معرفة الجواهر (جينر آباد ١٣٥٥ هـ) ص ٤١: «وفي كتاب الاحجار المنسوب الى ارسطوطاليس (فما اظنه الا متحولا عليه) انه ربما اتفق في الباقوت نكتة قاضلة الحمرة على سائرهما فاذا نفخ عليه في النار انبسطت النكتة فيه فزادته حسنا وان كانت سوداء ذهبت بعض سوداءها». وهذا النص من بعض الاختلافات موجود ايضا في كتاب الاحجار لارسطوطاليس الذي نشره وترجمه روسكا (ص ٩٩، ١٣٥)<sup>(١٤)</sup>. وهناك في الحقيقة بعض المناسبات بينا تواتر عن ارسطوطاليس الفيلسوف المعروف وكتاب الاحجار المتحجل له. ان النتائج متبدلة دوما، ولكن البحث العلمي التزيه يابق الى الأبد، ويقع هذا لروسكا وامثاله نصبا تذكاريًا خالدا لا يقضى عليه تعاقب الايام ومر الاعوام، وينطبق هنا وما تواتر عن الشاعر الألماني ليستنج Lessing:

«لا ينحصر فضل الانسان في امتلاكه الحقيقة... وإنما فضله في الجهد الذي يبذله خلعًا في السعي اليها، ولا تنمو ملكات الانسان بامتلاك الحقيقة، بل بالبحث عنها، وكاله المتراذب ينحصر في هذا وحده، بل ان امتلاك الانسان للشئ يميل به الى الركود والكسل والغرور. ولو ان الله وضع الحقائق كلها في يمينه ووضع في شماله شوقنا المستمر اليها وان اعطاناها دائما ثم خيبرنا لسارعت الى اختيار ما في شماله، وقلت — يا ايانا؟ رحمتك، ان الحق الحاصل لك وحده». وهذا يوافق دعاء المسلمين في صلواتهم من سورة الفاتحة: «اهدنا الصراط المستقيم» ويوتر من محمد اقبال في هذا الصدد قوله: «اني اضحي باليقين المطلق في سبيل الشك لأني شديد البحث». بقيت علينا ناحية واحدة لا يد لنا في ختام ذكرى هذه الشخصية الفذة من التوفيق بها الا وهي تربية اولاده، فيقول عنه ابنه هيلموت ما يلي<sup>(١٥)</sup>.

Fuad Sergin (Frankfurt/M), Das Problem des Gābir (Ibn Ḥayyān im Lichte neu gefundener Handschriften, ZDMG, 114, 1954, S. 255—68.

(١٤) راجع مقال عن المصادر اليونانية فيرون، المصدر المتقدم (مجلة الحريات الأثرية السورية).

(١٥) ذكرى روسكا، المصدر المتقدم. (هيلموت روسكا)

ولقد كان ابونا الكثير الانشغال، من اجلنا نحن الاولاد غرقاً في غرفة دراسته، ورضي ذلك فقد كنا نقوم بصحبه بالتره في ايام الاحاد وفي العطلات بصورة كافية، وكذلك كنا نجري بعض المباحثات في الجيولوجيا وعلم المستعدنات والنبات، وكان التاريخ وما قبل التاريخ من المواضيع المحببة لنا. اما قيام والدنا في مراقبة بعض الواجبات المدرسية فلم تكن عبية لدينا. وكانت تثار في بعض الاحيان بيني وبين اخي مناقشات حادة، ولكن وجودنا حول طاولة الدراسة للوالد كانت تسكن من حدة هذا التوتر وتهدئ الزوبعة الفكرية. وفي مقال نشره والدنا عن العيد الثوري لتأسيس المدرسة (في هايدلبرغ) ذكر انه استعمل المجهر المبدع في إحدى خزائن المدرسة. ولم نتح في الفرصة بالقيام بالتجارب الميكروسكوبية مع والدي، ولكن الأستاذ لايبير L. eiber دربنا على تامين فحص الانسجة والخلايا لاداء الفحص التمهيدى للطلب. وعندما اظهرت للوالدى رغبتي للحصول على مجهر حتى لي هذه الرغبة على الفور. وبعد عشرين سنوات من ذلك كنت اتمرن على المجهر الالكترونى لاسي لارنست Ernst ولصهرنا بودوفون بوريس Bodo von Borries في مختبرات سيمنس هالسكه (الشركة المسماة) Siemens-Halske AG. للفحص الحياتي. ثم يتابع قوله: «هناك شكايات عديدة من اجل اصلاح المدارس، وكان والدى من اولئك المصلحين، وكان يتطلب ثقافة في العلوم الطبيعية في المدارس بصورة كافية، رضى انه كان من المتحمسين الى الثقافة الانسانية (للأوائل)، والتاريخ، وعلم اللغات (بجانب العلوم الطبيعية)، وكان على يقين بأن الواجب للنادرة في جميع الفروع لابد من ان تقدمها ثقافت في العلوم الطبيعية المحضة. لقد تعلمنا في البيت احترام المدرسة وجهود المعلم، ولقد تربينا على ان نكون بنشاط دائم لقيام بأعمال فريدة داخل المدرسة وخارجها، وكان والدى يعطى الحرية لنا في اختيار الاختصاص الذى كنا نصبو اليه، وان لم تكن هناك وظيفة براتب تتناسب خولططنا. تربينا ايضا على لزوم التعاون بين البيت والمدرسة، ونعترف بدفع مواهبنا الى الامام بدءاً من المدرسة حتى الى المواقف

الحاسمة في تقدم الحياة، وان تنفيذ مثل هذه الامور بحكمة وروية هي من الواجبات الاولى للمجتمعات الانسانية. ان فكرة الثقة هذه اوروها يوليوس روسكا لابنيه كل من ارنست واخيه الاصغر هيلموت، فاصبح الاول اليوم مدير معهد المجهر الالكترونى في جمعية ماكس بلانك<sup>(١٠)</sup> في برلين والثاني مدير معهد الفيزياء الحياتية والمجهر الالكترونى في جامعة دوسلدورف. وليست هذه المرة الاولى التى توقفت العلوم الفكرية البحتة العلوم الايجابية في جهود روسكا مزمياً من العلوم الايجابية والفكرية، فهناك ممن كانوا من العلوم الفكرية المحضة وكانوا مع ذلك السبب في تقدم العلوم الواقعية، فان الباحث على تشكيل جمعية الامبراطور ويلهلم والتي اصبحت فيما بعد جمعية ماكس بلانك هو ويلهلم فون هوبولدت الليبيلوماسى والعالم اللغوى والمرئي الكبير، وان اول رئيس لهذه الجمعية كان العالم اللاهوتى ادولف فون هارناك Adolf von Harnack ومع ذلك فقد كانت هذه الجمعية الباعثة على تقدم العلوم الايجابية بصورة مثالية.

يجدر بنا ان نختتم ذكرنا لعلامتنا يوليوس روسكا بكلمة للملاحظ، ذكرتها ايضا في ختام محاضرتي عن علم الحياة عند الملاحظ في مؤتمر تاريخ الطب الدولى العشرين الذى انعقد في برلين،<sup>(١١)</sup> تمييزاً عن التقدم المستمر الى الامام: «ينبغي ان يكون سينبنا لمن بعدنا كسينبيل من كان قبلنا فينا، على اننا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا، كما ان من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدناه». هكذا انمض هذا العالم التحرير والمذقق التقدير حيته في الثاني عشر من شباط عام ١٩٤٩ الى الراحة الابدية. ويصادف الآن مرور احدى وعشرين عاما على وفاته، ولكنه سيقى خالدا الى الاجيال القادمة طالما هناك دراسات جديدة في تاريخ العلوم العربية.

(١٠) عام ١٩٦٦.

Biologie bei al-Dschahiz, einem arabischen Naturphilosophen aus dem IX. Jahrhundert.

ولقد تدرت هذه المحاضرة ايضا باللغة العربية فقط. المجلس الأعلى للعلوم و اسير العلم التاسع (عربيان الملاحظ) دمشق ١٩٦٨.

## معرض الكتاب العربية في الف عام بقر محمد ابراهيم

في الساعة السادسة من مساء الاثنين ٢٣ فبراير ١٩٧٠، افتتح السيد احمد كامل محافظ الاسكندرية، معرض الكتابة العربية في ألف عام الذي أقامه عبد الحظ العربي الفنان محمد ابراهيم في دار الثقافة الألمانية (معهد جوتة) بالاسكندرية، وقد ضم المعرض أكثر من أربعين لوحة فنية كتب معظمها الأستاذ محمد ابراهيم منشئ مدرسة تحسين الخطوط في الثغر وعضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة، ومن اللوحات التي كتبها لوحات تبين الكتابة العربية منذ نشأتها عند ظهور الإسلام وكيف تطورت في القرون المتعاقبة وفي مختلف الأمصار والممالك التي رفرت عليها راية الإسلام، كما ضم المعرض اللوحة الخالدة للقرآن الكريم في صفحة واحدة وقد كتبها الأستاذ محمد ابراهيم، وضم أيضا نماذج أصلية لبعض أعلام فن الخط العربي في القرون الخمسة الماضية مثل جلال الدين والحافظ حنّان وعبد الله الزهدى ومن إليهم، مما أثار إعجاب كل الزائرين على المعرض من مصريين وأجانب يتقدمهم محافظ الثغر وكبار رجال العلم والأدب والفن وسيادة قنصل ألمانيا العام ومدير معهد جوتة وكثير من رعايا الجالية الألمانية في الاسكندرية. وقد ألقى السيد محمد ابراهيم قبل افتتاح المعرض محاضرة باللغة العربية، وقامت بترجمتها إلى الألمانية كريمة الأنسة بستان محمد ابراهيم خريجة مدرسة سان شارل بوروييه الألمانية في الثغر، تحدث فيها سيادته عن الكتابة المصرية القديمة ثم تطرق حديثه إلى الكتابة العربية وكيف نشأت في بلاد العرب حتى عمت الأقطار والأمصار بعد الفتوحات الإسلامية، كما شمل الحديث بعض النهضة الفنية التي قامت في العالم العربي منذ القرون الأولى. وها نحن نسجل نص المحاضرة وقد أهداها الأستاذ محمد ابراهيم إلى مجلة «فكر وفن» مع هذه الصور الخطية التي تكشف عن روائع الفن الإسلامي وهي من معروضات معرض الكتابة العربية في ألف عام.

### المحاضرة:

فأسرع به إلى رئيسه الجنرال مينو في الاسكندرية، فاستولى عليه الجنرال واعتبره من متاعه الخاص. هلم نابليون بالأمر، فأمر بنقله على الفور إلى القاهرة حيث تهاقت عليه جمهور العلماء الذين رافقوا الحملة، أثارت الكتابة دهشتهم وعجزوا عن قراءتها، فأمر نابليون بطبع ما على الحجر من كتابات وتوزيع نسخ منها على علماء أوروبا.

أبرمت معاهدة بين بريطانيا وفرنسا بعد هزيمة الفرنسيين في مصر، ونصت المادة السادسة عشرة منها على أن يسلم الفرنسيون للإنجليز حجر رشيد مع بقية الآثار التي استولوا عليها، ونقل الحجر فعلاً إلى إنجلترا عام ١٨٠٢. كانت نقوش هذا الحجر مكتوبة بلغتين مختلفتين، المصرية

كما أن حضارة المصريين القدماء هي أعرق الحضارات في العالم أجمع، كذلك فإن الخط المصري القديم يعتبر أقدم الخطوط في العالم كله على الرغم من القلة من المستشرقين الذين حاولوا إثبات قدم الكتابة الصينية عن المصرية، وقد ظلت معرفة هذا التاريخ مجهولة بين طلي صفحات الزمن آلاف السنين حتى شامت إرادة الله أن تكشف عن غوامض هذه الحضارات في أوائل القرن الثامن عشر حينما تم العثور بمصادفة على حجر رشيد. أمر نابليون بوناپرت لثة من جنوده بهدم حصن قديم بالقرب من مدينة رشيد، فعثر الضابط بوسار وهو من فرقة المهندسين الذين رافقوا الحملة الفرنسية على هذا الحجر،

# كتاب الميراث في الفقه والحديث والسير والفتاوى والدراسات

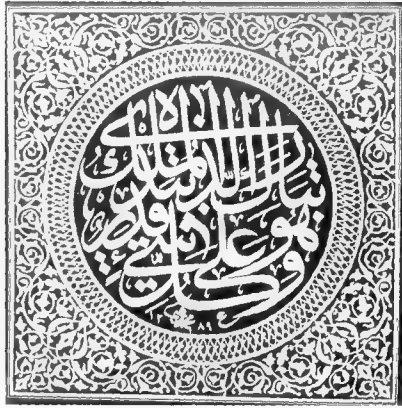
تخرج من الخط الكوفي النسابوري وهو  
 من الخطوط النادرة، كتبها الأستاذ محمد  
 إبراهيم

من العلماء الأئمان الذين ساهموا بقسط وافر في هذه  
 الدراسات.

لقد تفق شامبليون على جميع علماء عصره بحل رموز  
 الكتابة الميريغليقية، وما كان له أن ينال هذا الشرف  
 وهذه الدرجة الرفيعة من العلم والمعرفة لولا فضل مدينة  
 الاسكندرية وعلمائها عليه حيث استطاع بشئ من الفطنة  
 والدكاء أن ينال قسطاً وافراً من تعلم آداب اللغة القبطية  
 عن طريق مراسلات كانت بينه وبين بعض الجهابذة  
 من أقطاب مصر من أتباع القديس سان مارك بالاسكندرية  
 وبهذا فتح الباب على مصراعيه للباحثين من بعده عن  
 الكتابات التي أدت إلى معرفة شتى الحضارات في العالم كله.

والإغريقية، وكتبت اللغة المصرية بنوعين من الخط  
 «الميريغليقي» وهو القلم القديم المستعمل منذ عهد الأسرات  
 الأولى، و«الديموطيقي» وهو القلم المحدث الذي كان يستعمله  
 العامة في حياتهم اليومية، وكان من اليسور على العلامة  
 البريطاني استيفن وستن أن يكون أول من ترجم القسم  
 الإغريقي بعد دراسة عشر سنوات، وبعد دراسة ستة عشر  
 عاماً توصل الدكتور توماس بينج إلى وضع أبجدية للحروف  
 الميريغليقية عام ١٨١٨ ولكنها ظلت موضع التغير  
 والتبدل حتى ظهر العلامة شامبليون، فأدخل إصلاحات  
 جديدة على دراسة من سبقوه من العلماء ووضع كتاباً  
 خاصاً لقواعد الكتابة الميريغليقية كما ظهر في الأفق كثير





كتابة زعفرانية للأستاذ محمد إبراهيم.  
تشكر الأستاذ محمد إبراهيم المرحوم لتصرّحه  
لنا بنشر هاتين الرحلتين في مجلّتنا.

لم يسر الباحثون على آثار خطية لهذه المعلقات أو لغزها من المخطوطات لفترة ما قبل الإسلام، ولكن الاكتشافات الحديثة التي تمت في القرنين الثامن والتاسع عشر، تشير بأن الكتابة النبطية هي أقرب المخطوط إلى الكتابة العربية حيث عثر على بعض نقوش جاهلية قريبة إلى العربية من حيث اللغة والأسلوب، وهذه النقوش دونت بالقلم النبطي المتأخر الشبيه بالخط الكوفي القديم، ومن هنا يتبين أن الكتابة العربية لم تنهض نهضتها الصحيحة إلا عند ظهور الإسلام.

حينما أشرق نور الإسلام على تلك القلاع وشامت إرادة الله أن ينقل هذا العالم من ظلمات الجهالة ودياجير الكفر إلى شمس المعرفة ونور اليقين، ظهر النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ولم يكن فيها من يلم بالقراءة والكتابة غير عدد قليل من الرجال تعلموا على يد حرب بن أمية بن عبد شمس، وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وطلحة وابو عبيدة ومعاوية ويزيد بن أبي سفيان.

استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقضى على الأمية في بلاد العرب جميعاً في سنوات قلائل، وكانت

أما الكتابة العربية فقد نشأت في شبه جزيرة سيناء ثم انتشرت في صحراء سوريا وبلاد الشام وانتقلت من بعد ذلك إلى بلاد الحجاز حيث كانت العلاقات التجارية والأدبية تربط عرب جنوب العراق بقبائل مكة ويثرب والطائف.

كان الخط النبطي النسوب إلى الأنباط هو الشائع بين طبقة من الناس في بلاد العرب قبل الإسلام ومعظم الناس كانوا في ذلك العهد في غير حاجة إلى الكتابة نظراً لتفرق قبائلهم وطول ارتحالهم من بادية إلى أخرى طلباً للبيش، كما أن عدم انضامهم تحت لواء واحد أو حكومة منتظمة يرجعون إليها في دستور أو حكم كان سبباً مباشراً في انتشار الأمية بينهم وانصرافهم عن الخط والتدوين، وليس معنى ذلك أنهم كانوا مجردين من العلم والمعرفة، بل كانت هناك كتابة يستعملها التجار عند الضرورة، كما كان فيهم من يقرض الشعر بطبيعته بدليل ظهور فحول شعراء الجاهلية وانتشار أشعارهم التي خلدها التاريخ جيلاً بعد جيل، وهؤلاء كانوا يدونون قصائدهم ويعلقونها على أبواب الكعبة، ومن هنا سميت بالمعلقات وبقي هذا الاسم كما نعرفه إلى يومنا هذا.



صفحة عليها كتابة زعفرانية لعزير زعاني. وهي محفوظة بمجموعة خامسة في بون.

على الحجارة العريضة البيضاء وعلى عصب التخل أى الجريد الذى لا يخص عليه وكذلك على عظام الإبل والغنم، ولما فتح العرب مصر كثر استخدامهم لورق البردى الذى اشتهرت مصر بصناعته منذ عهد قدماء المصريين كما عرف العرب أنوعاً متعددة من الورق بعد فتح الشام واخضاع القرص تحت راية الإسلام.

انتشرت الكتابة العربية في بلاد العرب من بعد وفاة النبي، وعرف أهلها أهمية الكتابة وخطورها وسبب ذلك ما أحاط البلاد من فتن وثورات، فقد ارتد عن الدين الإسلامى في ذلك العهد أئوف موافقة من الناس أطلق عليهم اسم المرتدين، كانت أهم موقعة قامت بين المسلمين وبينهم هي موقعة البامة التي سرف فيها أبو بكر بطل الإسلام خالد بن الوليد الذي استطاع أن يقضى عليهم قضاء مبرماً وأن يحطم هذا الجيش الضخم الذي قاده مسيلمة وطليحة، ذلك بفضل بقرته الحربية وإيمانه القوى وروح التضحية والقداء التي سرت بين أصحابه في جيش المسلمين فتساقطوا واحداً بعد الآخر مضحين بأنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الدين، فأظلمت نسمة من روح الله جل شأنه وارتفع علم الإسلام وتم الانتصار وأحمدت نار الفتنة فلم تقم للمرتدين قائمة بعد ذلك أبداً.

ولكن المسلمين وإن كانوا قد أحزروا نصراً مبيناً في هذه المعركة التي بلغ عدد جيوش المرتدين فيها أكثر من ستين

الوسيلة الأولى التي تلدع بها صلوات الله عليه وسلامه لتشنة جيل جديد يقرأ ويكتب، هي عدم قبوله القدية لإطلاق سراح المتعلمين من أسرى غزوة بدر إلا إذا قام الأمير منهم بتعلم عشرة من المسلمين الكتابة، كما كان الرسول يحث أصحابه وقيمه على تعلم الكتابة والأخذ بها. وما زال على هذه الوتيرة حتى ازداد عدد المتعلمين في مكة والمدينة وبلغ عدد كتاب الوحي أو كتاب النبي أكثر من أربعين رجلاً.

وحينما اتسع نطاق الدعوة الإسلامية كانت الكتابة العربية خير سفير في انتشار هذه الدعوة حيث أخذت الرسائل النبوية أول دور في هذا الشأن حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتابة إلى الملوك والقبائصة يدعهم فيها إلى الدخول في دين الله.

أما أدوات الكتابة في ذلك الزمان فقد كان العرب في الجاهلية يدونون أشعارهم على نسيج مصرى يحملونه ضمن تجارتهم من مصر إلى بلاد العرب، وكانت تجارة هذا النسيج قليلة جداً بالنسبة لانتشار الأمية بينهم كما بينا، فلما ظهر الإسلام وانتشركان معظم الناس بمعتدين على حفظ الآيات الشريفة التي ينزل بها الوحي على الرسول الأمين، وكان البعض يكتبونها على الجلود، يرقن بحيث تصلح عليه الكتابة ولذلك سمي الورق، وعليه كتبت المصاحف والرسائل في ذلك العصر، كما كانوا يكتبون

آلت رئاسة هذا الفن بعد ذلك إلى مصر في عهد الفاطميين وما زالت كذلك حتى غزاها السلطان سليم فقتل جميع الفنانين المصريين إلى تركيا فتملأوا منهم ونبتوا وتفرقوا، ورفع الأتراك لواء هذا الفن خمسة قرون متوالية حتى أُلغيت الكتابة العربية في عهد الغازي مصطفى كمال عام ١٩٢٨ فعاودت رئاسة الخط يد مصر من جديد وقامت نهضة جديدة على يد أعلام الخط في مصر كما افتتحت مدرسة للخطوط في القاهرة واستقدمت الحكومة المصرية من تركيا للتدريس بها أكبر أساتذة من أساتذة هذا الفن في ذلك العصر هو المرحوم الشيخ عبد العزيز الرفاعي، بمعاونة الفنانين المصريين مثل نجيب هوداني ومحمد حسني وبعض الأساتذة الذين أخذوا عن مؤسس وجعفر وهما البقية الباقية من مدرسة عبد الله الزهدي كاتب الحرمين الشريفين ومسجد الرفاعي وسبيل ام عباس وكثير من المساجد والمنشآت في القاهرة.

كما قامت في الاسكندرية نهضة كبرى بدأت منذ أكثر من أربعين عاما كان في شرف القيام بها منذ تأسيس مدرسة تحسين الخطوط في الثغر، وقد ساعدت المدرسة أول نشأتها زيارات الشيخ الرفاعي قبل رحيله من مصر إلى تركيا عام ١٩٣٥، وقد تخرج فيها مئات من الطلبة ولا تزال تؤدي رسالتها إلى يومنا هذا بنشر الفن الإسلامي لاقى مصر وحدها بل وفي الأقطار العربية جميعا وفي كثير من دول أوروبا وأمريكا كما وفقت لإقامة معارض ومتاحف دائمة للخطوط العربية مثل متحف الجامعة العربية ومتحف مصطفى كامل وفريد وسعد زغلول في القاهرة ومتحف الاسكندرية والبحيرة والدقهلية، هذا عدا معارض كثيرة متنقلة أقيمت في مصر وتختلف الدول العربية كان آخرها هذا المعرض المقام في دار الثقافة الألمانية بالاسكندرية الذي شرفه بالافتتاح سيادة محافظ الاسكندرية وقصبل ألمانيا العام ووصفوا رجال الأدب والفن والثقافة في الثغر من مصريين وألمان، وسيقام مثل هذا المعرض في القريب بدار الثقافة الألمانية في القاهرة ينتقل بعدها بإذن الله إلى ألمانيا وفي ذلك توطيد للعلاقات الثقافية والفنية بين شعبي الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية ألمانيا الاتحادية.

وستظل الاسكندرية دائما تحمل مشعل الحضارة والفن تضئ به نور العلم والمعرفة في كل مكان كما كانت منذ عهدها القديم.

ألفا، إلا أن حزنهم قد اشتد على موت مئات من الصحابة من حفاظ القرآن الكريم خوفاً من أن تمتد يد القتل إلى بقيتهم في مواقع أخرى قد تعرض للمسلمين بعد ذلك فيقتصر القرآن للضياع، عندئذ ثارت ثائرة عربين الخطاب فأشار على أبي بكر بالمبادرة بجمع القرآن وتلويته، فاستجاب لطلبه ودعيا زيد بن ثابت كاتب النبي وموضع ثقته وثقة الخلفاء والصحابة أجمعين، وأمره أن يجمع القرآن ويدونه فكان زيد بذلك هو أول جامع وكاتب للقرآن الكريم في تاريخ الإسلام.

كانت الكتابة العربية في انتشارها غازية قوية التأثير في البلاد التي فتحتها للمسلمون والتي رفرقت عليها راية الإسلام، ففي بلاد فارس حلت الحروف العربية محل الفارسية، كما استخدمها الأفغانيون في كتابة حاجاتهم، وتخطت حدود الهند شرقاً وجنوباً فاستعملها أهل جاور والملايو، وكذلك أدركت الصين فكتب بها المسلمون هناك نصرهم الدينية الإسلامية، كما قدر لها أن تغزو تركيا وتنتشر فيمال البحر الأسود وجنوبي جبال أورال، بل جاوزت حدود إقليم سيبيريا حيث كتب بها مسعودوسيا، وانتشرت أيضاً في العلم الإفريقي بعد فتح العرب لمصر في زمن عربين الخطاب حيث امتدت الفتوحات بعد ذلك إلى شمال أفريقيا في مراکش وتونس والجزائر وفي اسبانيا حيث انتقلت منها مختلف العلوم والفنون والحضارات إلى أوروبا لتوقظها من سباتها العميق.

ومن هنا يبين أن الكتابة العربية قد صاحبت لغة العرب الفاتحين وأدت بجانب السيف أجل الخدمات للإسلام والمسلمين بل وللعالم كله على السواء.

أما أعلام الخط العربي وأصحاب الأيادي البيضاء على هذا الفن الإسلامي المهيذ فقد بدأت بهم النهضة العلمية والفنية في مكة والمدينة مهبط الراسي الأمين، ثم انتقلت بعد عصر الخلفاء إلى الشام حيث كانت مقر خلافة الأمويين، وما لبث فن الخط في الازدهار حتى كان مضرب الأمثال في عصر الدولة العباسية على يد الفنان الملم المهندس الشاعر الناصر الخطاط رئيس الوزراء ابو علي محمد بن مقلة، ويكنى في هذا المقام أن أميل كلمة قلأها عنه أبو حيان التوحيدى، قال عند ما سئل من رأيه في ابن مقلة فإنه نبي فن الخط يوحى إليه كما يوحى إلى النحل في تسليد بيوته.

كانت همة إحدى الخطباء الأخيرة التي ألقاها الأستاذ محمد إبراهيم قبل وفاته بأسابيع قليلة.



مشهد من جانب في المعرض يحتوى على مصصوبات ملونة للفنان رزى مصطفى وهي قد أبدعت في عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠.

## الفرع المصري الحديث والتقد الألمانى

في هذا المعرض نماذج من إنتاج: منير كتمان، وطه حسين، وفؤاد كامل، وحمدي نجيب، ورمزي مصطفى، وعفت تاجي، وماهر رائف، وصالح رضا، ومحسن شرارة، ويوسف سيده.

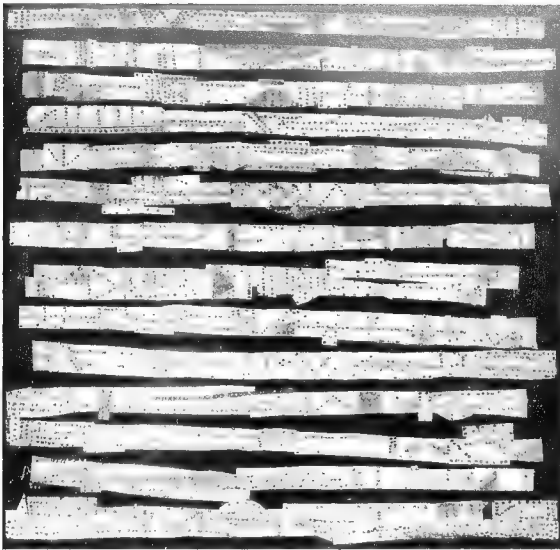
لأول مرة في تاريخ ألمانيا الاتحادية يقدم أحد متاحفها، وهو متحف فولكوانج Museum Folkwang بأسن Essen، عرضاً لأعمال عشرة من الفنانين المصريين خلال شهري يوليو وأغسطس ١٩٧٠. وقد شاهد الألمان



نؤاد كاميل : المصن رقم ١٩٦٨ - ٤ (أكبر بل عل حشب)



منیر کمان: پلا عنوان، کراچ، ورقہ، ۱۹۶۹.



حمى حسن بلا عواء، كزلاج، معدل على حشب، ١٩٦٢

المعرض بتكليف من متحف «فولكفانج»، كان لا يعلم أن أوروبا قد سبق لها أن عرفت الفن المصرى الحديث منذ أعوام وأعوام، إذ أنه قدم أعمال الفنانين المصريين فى كراسة المعرض المطبوعة بقوله أنه: أول أوروبي لم يتعرف على الفن المصرى «بواسطة أهرام الجيزة» وإنما «عن طريق أتلبيات الفنانين». فلا شك أنه لم يتم زيارة معهد الفن التابع لسفارة ج.ع.م فى رواء، ولم يلتفت إلى أعمال المصريين فى معارض «بينالي» بالبنديقية. والحق أن الفرنسيين

وكانت قد نشرت صحيفة الأهرام القاهرية خبراً عن الاعداد لهذا المعرض فى أحد أعدادها الصادرة خلال شهر أكتوبر ١٩٦٩.

وقد تعرض هذا المعرض فى مرحلة إعدادده لما تتعرض له المعارض الشبيهة من ثباين فى الذوق الفني لدى الحياة المعارضة من جهة، ومنتجى الفن وتقاده فى الأقطار التى تستقدم منها التماذج من جهة أخرى.

ومن المؤكد أن السيد «ديتر هونيش»، الذى أعد لهذا

والإيطاليين كانوا من أسبق الأوروبيين «اكتشافاً» للفن المصري الحديث من خلال إنتاج أبناء وادى النيل الحديثين.

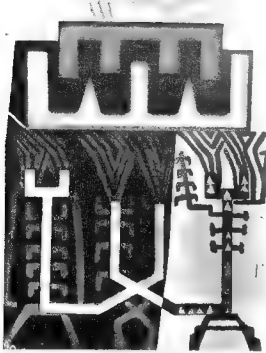
وعله جدير بنا أن نقل هنا إلى القارئ العربي بعض ما عبر عنه «هوينش» من تجارب خاضها أثناء الإعداد لهذا المعرض، فهو يقول: «قمت، حسب فكري الأولى، باختيار أربعين فناناً من قرابة المائة والخمسين حتى يقدموا صورة عريضة للفن المصري الحديث. غير أنه تملر تنفيذ هذا المشروع لأسباب عدة ليس آخرها عامل التمويل. وبينما كان يتضمن هذا المشروع على كافة الخصائص والمميزات المحلية لم يبق أمامي سوى الاقتصاد على عشرة من الفنانين المقيدين ليس فقط على مستوى مالي، وإنما كذلك بالنسبة لتفاعلهم المثمر مع تراثهم (المصري). ولقد أسرتني انتباهي أن أولئك الفنانين الذين استجابوا للمشاكل الفنية الراهنة بدقة وحساسية فائقة، رغم بعدهم الملموس عن مراكز الفن الحديث، هم أولئك الذين كانوا على وفاق وانسجام مع الصيغ التنظيمية الموجودة في التراث الخاص. ولما كان هؤلاء الفنانين لا يقفون من تلك العناصر الأثرية القديمة موقفاً عقلياً خالصاً، وإنما يستحضرونها في تشكيل رؤاهم البصرية كمعصر من صميم ذاهم الحضارية، فإنهم بذلك يأتون في نفس الوقت بروى من إراهم التراب، ويمنحون من الصيغ والمضامين ما يتعلم علينا اليوم استشفافه. وإننا لا نقبل أعمالهم لأنها تستجيب للتيارات العالمية، بل لأنها تمكنت من أن تحقق لذاتها كياناتاً مقننا على صعيد عالمي.

وتعد الأطوار الفني لهذا المعرض فترة زمنية معينة. فهو يعرف بالسبعينات في مصر ابتداء من التعبيرية التجريدية في أعمال فؤاد كامل ويوسف سيده، عبر الأشكال القرية من Op-Art، في إنتاج طه حسين، وموضوعات اللون عند رمزي مصطفى وعفت ناجي حتى الرؤى الفكرية عند محسن شرارة.

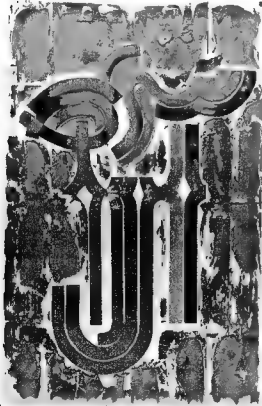
وقد أعان كل من فؤاد كامل وطه حسين «ديتر هوينش» في الإعداد لهذا المعرض. كما ألف فؤاد كامل «عرضاً تاريخياً» لكراسة المعرض.

وفكر وفن تقدم بخاص الشكر لديتر هوينش Dieter Hoesch على ترويضنا بالصور المنشورة إلى جانب هذا المقال.

ترجمة: مجدى يوسف



شعب راسي، سبب، أكتوبر من جيب، ١٩٦٥



مأخر راتب، كويتيين البلد ١، عام ١٩٦٩

انظر أيضاً ص ٩ أعمال من فن الخط والفن الحديث: لوحة للفنان يوسف سيده تصوير: ليزيلوت فيسل Liselotte Witzel. إن.



# طلائع الكتب

سبقي الخط في القرامس دهرأ  
وكاتبه ريم في التراب

*Wolfhart Heinrichs, Arabische Dichtung und griechische Poetik. Hāzīm al-Qartāğānīs Grundlegung der Poetik mit Hilfe aristotelischer Begriffe. Beirut Texte und Studien. Band 8. Beirut 1969. In Kommission bei Franz Steiner Verlag, Wiesbaden.*

هذه الدراسة المستفيضة عن «الشعر العربي ونظرية الشعر عند اليونان» تشكل موضوع البحث الذى تقدم به «فولفهارت هاينريش» للحصول على الدكتوراة من جامعة جيسن. الفصل الثالث منها عبارة عن ترجمة ألمانية لأحد فصول «مناج البلغاء وسراج الأدباء» لحازم القرطاجنى. أما فصلها الأول فيعالج أساس الشعر والمفاهيم الأساسية في نظرية الشعر. ويتعرض الفصل الثانى من هذه الأطروحة «لنظرية الشعر الأرسطاليسية عند العرب واستخدامها في نظام حازم».

وعنه من المعروف أنه لا زال ينقص حتى الآن عرض تلخيصى لنظرية الأدب عند العرب. وقد تعرض «هاينريش» بالتحليل الدقيق — في مقدمة كتابه — لما ظهر في الغرب من مساهمات قليلة حول هذا الموضوع، متطرقا بالطبع للمؤلفات «جرونيوم» و«ريتر».

ويبدو لي المقطع الخاص بمصادر الشعر على درجة خاصة من الأهمية: فما هو أشد تأثيرا على الأدب العربي القديم: الاستيحاء، أم قوة الخيال، أم ثقافة الشاعر؟ وما هي المصادر التي أكد عليها مختلف منظرى الشعر العربي؟ وهل تعرف العربية شعرا وخياليا صرفاء؟ إن معظم نقاد العرب، ومن بينهم حازم القرطاجنى، يرفضون الاختلاق الأمتناعى. ما هي إذا أدوات الشاعر؟ وما هي علاقة الشعر بالواقع: أهو وصف بالدرجة الأولى، وإلى أى حد يوجد الكذب في الوصف، أو المحاز، أو الغلو؟ هنا يقوم الباحث بدراسة الأسس التي تقوم عليها المبادئ التالية التي تبدو في ظاهرها متناقضة: أحسن الشعر أكذب، أحسن الشعر أصدق، أحسن الشعر أقصده.

ثم يتطرق المؤلف بعد ذلك لمشكلة المعنى واللفظ التي شغلت نقاد العرب طيلة قرن عدة، وهي وثيقة العلاقة بالأصالة من جهة، والتقليد من جهة أخرى. ويهتم صاحب الأطروحة خاصة بعرض الخصائص التي يتميز بها الشعر الجيد، كتلك القائمة التي أتى بها هلال المسكرى في وصف فضائل الشعر. وينتسب إلى ذلك بالمثل أثر الشعر سياسيا واجتماعيا كما نجده في الفصل الذي ألفه ابن رشيق حول «باب من رفعه الشعر ومن وضعه».

بعد هذا القسم الأول الذى يقدم — في تقديرى — أفضل تحليل للشعر العربي القديم بحدى اللغات الأوربية بين «هاينريش» استيعاب السورين والعرب لنظرية الشعر عند أرسطو، وهي التي لم تلعب أبدا أى دور رئيسى في التراث الأدبى العربى، بل على العكس من ذلك، فقد أدت أخطاء الترجمة منذ البداية إلى عدم ترسخ نظرية الشعر الأرسطاليسية في الشرق العربى. ثم يتطرق المؤلف إلى آثار الفلاسفة العرب في مذاهب الشعر، وخاصة ما كتبه في ذلك الفارابى وابن سينا، ونمضى بعدها إلى أسس النظام الذى وضعه القرطاجنى، وهو منظر الشعر، والذى مات في تونس عام ١٢٨٥.

وإنه لمن المستحيل أن تعرض هنا لكل ما جاء في هذا الكتاب النفيس من معالجات، غير أنه يجدر الإشارة إلى أن المؤلف على اطلاع واسع وعميق على كل من الآداب اليونانية، والسريانية، والعربية. ولنا لنأمل أن نقرأ له المزيد من الدراسات والمؤلفات حول هذا الموضوع الصعب المثير.

Heribert Busse, *Chalif und Großkönig. Die Buyiden im Iraq (945-1055)*. Beirut Texte und Studien, Band 6. Beirut 1969, in Kommission bei Franz Steiner Verlag, Wiesbaden.

يلبس قارئ هذا المجلد السميك الذي تنيف صفحاته على السهولة ويعالج فيه مؤلفه «هيربرت بوسه» Heribert Busse حكم بني بويه في العراق (٩٤٥-١٠٥٥م) كافة سمات مدرسة المشرق «برتولد شيلور» Bertold Spuler ومنهجه التاريخي في البحث. ويستهل المؤلف دراسته باستعراض الأحداث السياسية في عصر بني بويه فيعطينا صورة عن فجر ذلك العصر، ويرجع على ازدهار الحكم وبلوغه الذروة ثم انهاره وانهار المملكة. بعد ذلك يتطرق الكاتب إلى أحوال الدولة، اقتصادها وإدارتها، ويبحث في القسم الثالث من كتابه أحوالها الدينية والحضارية. ولا تغفل إن قلنا أن كافة المصادر المتاحة قد استغلت هنا عن آخرها ل إعطاء فكرة دقيقة بقدر الامكان عن أحوال الدولة في ذلك القرن الحاسم من تاريخ الاسلام. ويتيسر القارئ الطويلة لأهم موظفي الدولة، التي قام المؤلف بتجميعها وتنظيمها. عمل المؤرخين الذين سيتوفرون في المستقبل على دراسة تلك الحقبة. ومع هذا فانه لبيد أن الجزء الثالث من هذا السفر لا زال بحاجة إلى استكمال. فلان عولجت مختلف مدارس الاسلام، ومذاهب المسيحية، ووضع اليهود، والزرادشتيين، وأتباع «مانى» Manichäer. والمندائيين Mandäer، إلا أنه أغفل ذكر أهم مثل الطوائف الصوفية في ذلك العصر. وكلم كان بونا أيضا أن نعلم المزيد عن أدب تلك الحقبة وعلومها. رغم كل ما ذكره المؤلف من مراجع مهولة في هذا الصدد. ومن المفيد جدا في هذا العمل ما أتى به «بوسه» من جداول الأسباب. على أنه كان من الأفضل أن تزود هذه الدراسة بتلخيص موجز باللغة الانجليزية تيسرا للقارئ الذي لا يجيد الألمانية. ومهما كان الأمران في هذه الدراسة القيمة عمل لا ناص من الرجوع إليه لكل باحث في تلك الحقبة التاريخية الهامة.

*Islamische Geschichte Spaniens. Dargestellt von Wilhelm Hoenerbach auf Grund der A'māl al-A'lam und ergänzender Schriften.* Bibliothek des Morgenlandes, Artemis Verlag, Zürich und Stuttgart 1970.

يعد «هونرباخ» Hoenerbach مؤلف «تاريخ أسبانيا الاسلامي» Islamische Geschichte Spaniens أفضل المستشرقين الآن تعرفوا على حضارة المغرب الاسلامي، وإن له عديد من المؤلفات التي تعالج أسبانيا الاسلامية وشمال أفريقيا. ترجم «هونرباخ» إلى الألمانية «أعمال الأعلام» لابن الكاتب، أديب غرناطة وأحد قراس السياسة فيها، كذا يتمكن من عرض تاريخ أسبانيا فيما بين عام ٧١١م ونهاية القرن الرابع عشر. وقد تلى وصف الخلافة الأموية في أسبانيا التعريف بمختلف ملوك الطوائف، علما بأن المؤلف قد حرص على أن يبدأ كل فصل بذكر المواضيع الموازية لدى المؤرخين العرب غير «ابن الكاتب»، مع ذكر ما تيسر من المراجع الأوروبية التي تعرضت لتلك المنطقة أو الحقبة. وقد بين المؤلف في مقدمة كتابه بعض الآراء المتقاربة حول ترجمة التاريخ بالقصيد كما فعل «بيرو لوبيز دي أبالا» Pero López de Ayala. ثم حاول المؤلف أيضا أن يعرض لأوجه التشابه بين الآثار الأسبانية الاسلامية، بكل ما تعبر عنه من مذهب في الحياة، والملاسلات الأسبانية المسيحية، بل والاطالقة في عصر النهضة الأوروبية. وتحاول الترجمة الألمانية أن تحاكي أسلوب الأصل العربي بما فيه من سجع مرهم، وهي موفقة في هذا السبيل، غير أن ترجمة القصاصات المقتفا لا تبدولي قد وفقت في الألمانية (وخاصة تلك الخاصة بابن قزمان). وقد زودت الترجمة الألمانية بعدد كبير من الشروح والتعليقات التي تفيد وتجمع كل مهم بتاريخ أسبانيا في عهدها الاسلامي.

Heinz Grotzfeld, *Das Bad im arabisch-islamischen Mittelalter*. Verlag Otto Harrassowitz, Wiesbaden 1970.

يعجب من تقع عينه على عنوان هذا الكتاب كيف خلعت المكتبة الأوروبية حتى الآن من عرض لدور الحمام في الحضارة الاسلامية، والتقاليد والعادات المتصلة به. وقد استهل «جروتسفيلد» Grotzfeld - مؤلف هذا السفر - بحثه في «دمشق الغنية بالحمامات»، مستفيا كافة مظاهر الحمامات في القرون الوسطى الاسلامية العربية. ورجع المؤلف في جمع مواده إلى المخطوطات العربية ووصف الرحالة الأوروبيين ثم إلى تجاربه الشخصية التي خاضها في حمامات دمشق التي خصمه إليها أحد أبناء العاصمة السورية. وقد أجزى له جروتسفيلد - المستشرق الألماني - خلاص الشكر في كتابه هذا، خاصة وأنه قد هيا له فرصة الاطلاع والاختبار الشخصي لحياة الحمامات الشعبية السورية.

يتطرق «جروتسفيلد» إلى الدور الأساسي الذي لعبه الحمام في المدينة الاسلامية، ويبين كيف خرج الحمام الاسلامي من الحمامات الجاهلية، ويصف المباني بمختلف أقسامها، ويحتوي الكتاب على ملحق يضم رسوما تخطيطية لأشهر الحمامات

الاسلامية. كما ينحصر المؤلف فصلا كاملا لغرض تزيين الحمام الاسلامي بالثآليل واللوحات الفنية التي تعرفها من الحفريات التي كشفت عن قصور الأمويين في سوريا. وما يستحق الذكر أن من بين التشبيات الجارية بكثرة في شعر القرون الوسطى الفارسية: «وكانه لوحة على جدار حمام»، أو «لوحة على باب». – ويصف صاحب هذا الكتاب المعدات الفنية الخاصة بالحمامات تفصيلا: كطرق التدفئة، والتزويد بالمياه، والأضاءة، ومد مواسير الماء الساخن، والبلوعات لتصرف الماء العادم الخ. وفي ملحوظة هامشية تذكر اللفظة التركية Kulhanbeyi (كلخان بيكي)، ولقد ردد الأدباء الفارسي والمندى الاسلامي في مناسبات أكثر من أن تحصى ذلك التناقض القائم بين دار الرواد Kulhan كلخ و«روض الورود agülshan كلش، باعتبار دار الرواد أسوأ أماكن الإقامة.

ويسترعى الانتباه حقا وصف عملية الاستحمام التي يتبعها التزيين كقص الشعر، واستخدام المراهم في إزالة الشعر غير المرغوب فيه، وحل كعب القدم الخ. وتختتم عملية الاستحمام بتناول المشروبات والسمر مع الأصدقاء على عادة العرب المسلمين في القرنين الوسطى (ومن الواضح أن ذلك السمر كان يتطور أحيانا إلى ترائش بالألفاظ كما تبين بعض القصائد والنوادر). وقد كانت هناك قواعد وأصول متعارف عليها اجتماعيا في تناول الحمام كفضيلة الرأس أثناء كنفية الرأس في قاعات الاستحمام العامة. وكان بعض كتاب ذلك الزمان، ممن تمسكوا بهذه القاعدة، يستنكرون بشدة عدم اهتمام أهالي بعض المدن التي يتزلون بها بتطبيقها. وينحصر المؤلف فصلا كاملا لوصف حمامات النساء. ورغب أن التراث العربي الاسلامي لا يستحسن أن تذهب المرأة إلى الحمامات العامة، إلا أنها – أي تلك الحمامات – قد لعبت دورا هاما في حياة النساء على الخصوص. فهن يترين خصيصا ليعم الاستحمام (وفي تركيا كانت النساء تضع على الكتفين ثوبا حريرا جميلا للتطريز في يوم الذهاب للحمام). كما يتبع يوم الاستحمام لفتيات المخطوبات أن يستعرضن جاهلن، وللنساء أن يقابلن الأحداث الطويلة عن أحوال أسرهن.

وكانت واجبات موظفي الحمام محددة بدقة، وكذلك رسوم الدخول وما يتقاضاه كل من الخدم. وقد كان على المسيحيين واليهود في بعض المهود أن يلتزموا بقواعد معينة، كأن يحملوا بعض العلامات المميزة حول أعناقهم. ثم يستعرض الكاتب دور الحمام في الأساطير والعقائد الشعبية. فقد ساد الاعتقاد بأنه مقر الجن، كما انتشرت بعض الأقايس العجيبة عن القوى السحرية الكامنة في الحمامات.

وأخيرا يتطرق «جروتشيلده» إلى بعض ما أخذ عن اليونانية من العبارات الاصطلاحية في الاستحمام وعملياته، ويقدم عرضا لما كتب في موضوع الحمامات، مع ترجمة بعض المقطوعات الطريفة منها إلى الألمانية. ويستكمل شروح الكتاب عدد لا بأس به من المنمنمات الفارسية التي تستعرض الحياة داخل الحمامات، وهو ما يجعل نص الكتاب حيا مشوقا إلى جانب دسامته وطرافته. وإننا لا نملك إلا أن نثني على جهد المؤلف في اعداد هذه الدراسة العلمية الجملية عن أحد المظاهر الهامة في الحضارة الاسلامية العربية أثناء القرون الوسطى، لا سيما وأن هذه الدراسة قد ألقت الضوء كذلك على بعض العادات والتقاليد الشعبية في العالم الاسلامي المعاصر.

*Elisabeth Schmitt, Lexikalische Untersuchungen zur arabischen Übersetzung von Artemidors Traumbuch.* Franz Steiner Verlag, Wiesbaden 1970.

يشكل العمل الذي بين أيدينا (أكثر من ٥٠٠ صفحة) بحثا للدكتورة في الدراسات الشرقية قدم بجامعة ماينس Mainz. فقد أوكل الأستاذ الدكتور توفيق فهد (ستراسبورج)، الذي قام بتحقيق نص آرتيميدور، مادة هذا الموضوع المتخصص إلى المؤلف.

وتحتوي هذه الدراسة على كافة الاصطلاحات المستخدمة في الترجمة المنسوبة إلى حنين بن اسحق عن كتاب الأحلام الشهير لآرتيميدور. وتستعرض المؤلف هنا كافة الكلمات والمفاهيم اليونانية مع مقابلها بالعربية والمواضع التي استخدمت فيها. وبذلك تكشف عن نواحي القوة والضعف في الترجمة والمترجم. فهي تبين مثلا أن ترجمة أسماء النجوم والأفلاك والمفاهيم التشرىجية كانت موفقة للغاية، بينما افضت ترجمة أسماء النباتات والحيوانات إلى بعض التمييزات الدقيقة، بل أحيانا ما كانت الترجمة تخطئ تماما في نقل المعنى المقصود في الأصل. ولم يتمكن النص العربي بطبيعة الحال من إعطاء المقابل التام لأسماء ألقه الاغريق. من هنا نثني أن كيف الترجمة كانت يتأرجح حسب مضمون الأصل. ومع هذا فلا تملك المؤلف إلا التعبير عن إعجابها بارتفاع مستوى الترجمة بالقياس إلى العصر الذي عاش فيه الترجم (القرن التاسع الميلادي). ولا شك أن هذه الدراسة تعني كل مهم بنقل علوم الاغريق وأفكارهم إلى العربية في ذلك العصر المتقدم ..

بحال هذه الدراسة، التي كانت في الأصل محاضرة، أن تعرض شخصية عبد الله بن الزبير من خلال العلاقات التاريخية التي حكمتها مستعينة بمختلف الاتجاهات التي سادت أسفار مؤرخي العرب من بعده. ويرى المؤلف أن عبد الله بن الزبير خير ممثل لأنصار بني الإسلام. إذ اعتبر عبد الله نفسه من المحافظين على حكم محمد باسم الله، واعتبار مكة والمدينة مركزين طبيعيين للسلطة الإسلامية. فقد كان يعلم أن التاريخ لا يعود إلى الوراء. وقد أسهمت كافة التيارات التي ظهرت خلال السنوات العشر التي ظهر فيها عبد الله بن الزبير على مسرح الإسلام في مكة، في صياغة الإسلام ووضع حدوده كدين وكسلطة. أما عبد الله نفسه فما أحرز من نجاح باعتباره زعيما لحزب الإصلاح والتجديد.

*Hamburger Beiträge zur Afrika-Kunde, Band 10: Christoph Becker, Kano, eine afrikanische Großstadt. Deutsches Institut für Afrika-Forschung. Hamburg, 1969.*

إن من أنيحت له الفرصة كي يزور «كانو» Kano بعد الحرب الأهلية التي اجتاحتها، وأن يرقب تبدل السلطة السياسية في شمال نيجيريا، لا يملك إلا أن يثني على هذه الدراسة القيمة. فمع أنها — أي هذه الدراسة — كانت قد استكملت قبل نشوب الحرب الأهلية في «كانو» إلا أنها — مع ذلك — تعطي القارئ مفتاحا لفهم الوضع المعقد في شمال نيجيريا. وقد كان مؤلف هذا السفر موفقا كل التوفيق في استئلال عرضه بمذكرات الرحالة الكبير هاينريش بارت Heinrich Barth الباحث الرائد وصاحب الأيادي البيضاء على دراسة واستكشاف أفريقيا (راجع فكر وفن ١٦).

لم تلق «كانو» ما تستحقه من عناية واهتمام البحوث الجغرافية، مع أنه كان جديرا بمركز وقلب هذه المدينة ذي الطابع القديم، وكأنه مغلق على ذاته في مواجهة المدينة العصرية، أو ذلك الوجه المزوج لعاصمة أفريقية حديثة، أن يجذب اهتمام الباحثين، لا سيما وأنه يمكن بلوغ «كانو» بالطائرة من أوروبا بسهولة.

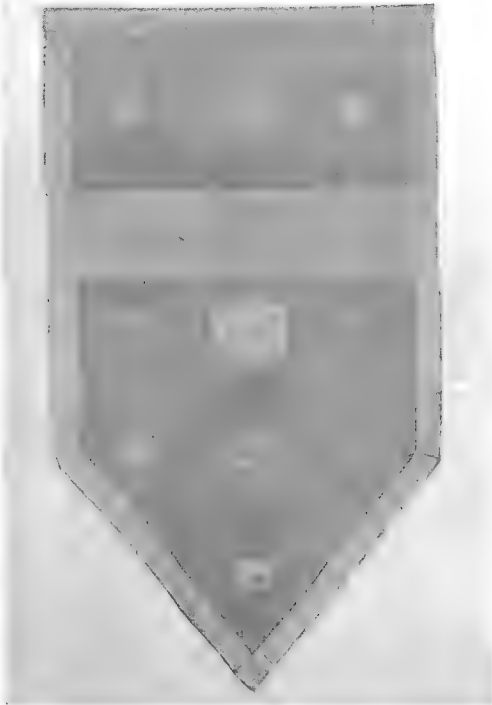
ويركز هذا الكتاب بصورة بصرية على «كانو» الحديثة، وإن له في ذلك كل الحق، كما تعرض لبيئة هذه المدينة ذات الطابع المعقد المتشعب، وإن عالج نظام التربية والتعليم فيها بشئ من الاقتضاب النسبي في رأينا. (فتاريخ مدرسة الحقوق في «كانو» طويل كان يجدر بالتلف أن يتعرف عليه مثلاً). على أن المؤلف قد استعرض بعق أكبر وأشمل الجانب الاقتصادي في هذه المدينة والعاصمة الأفريقية التي وفق صاحب الدراسة في تفسيرها على أنها طراز يمثل لشيلاتها في القارة السوداء. والصور المرافقة للنص مفيدة وإن لم يخل طبعها من العيوب تماماً، وهو ما يختلف على طبع الكروت التذكارية الممتاز. ونستدل على تعمق المؤلف في دراسته من خلال العدد الضخم من المراجع التي استعان بها. وإن كانت كل هذه المراجع بلغات أوروبية فقط.

*Heinrich Barth. Er schloß uns eine Welt auf. Unveröffentlichte Briefe und Zeichnungen des großen Afrika-Forschers. Herausgegeben von Rolf Italiaander. Pandion-Verlag, Bad Kreuznach, 1970.*

صدرت في خريف ١٩٧٠ عن دار نشر «بانديون» Pandion-Verlag، التي مقرها «باد كرويتسناخ» Bad Kreuznach، مكنويات «هاينريش بارت» Heinrich Barth ورسومه التخطيطية التي لم يسبق نشرها في مجلد يحمل عنواناً رناناً: «إذ فتح أماننا طرفاً من العالم». وقد أشرف على إصدار هذا الكتاب «رولف إيتاليااندر» Rolf Italiaander. ونستحق الرسوم التخطيطية التي زود بها هذا السفر كل الاهتمام. ولا تقل عنها أهمية رسائل «بارت» وتلك الموجهة إليه (من «ألكساندر فون هومبولت» Alexander von Humboldt مثلاً) إذ تعد من خير السجلات التي تفصح عن حياة باحث الأفريقيات الشهير الذي كتب عنه «جوستاف فون شوبرت» Gustav von Schubert المشرف على ما خلفه من آثار علمية ومؤلف سفر من ترجمة حياته: «إن بارت Barth أكبر وسيظل أكبر باحث ألماني في الدراسات الأفريقية، كما يمكن اعتباره الرائد الأول، إذ تبدأ — هي حقبة إعلاء شأن الاستكشاف العلمي لذلك الجزء من العالم ... فيم يعيننا عدم تفهم معاصريه له. إن ما قام به بارت من رحلات لن يقتدر حتى قدره إلا بعد أجيال عديدة». وإن ذلك اليوم جاء — اليوم! —



السلطان محمد الثالث، منمنمة عن المخطوطة التركية «زبدة التواريخ»، أواخر القرن السادس عشر، مخفولة في Badische Landesbibliothek Karlsruhe



راية كبيرة من رايات الحرب، تركيا في أواخر القرن السابع عشر، طولها في إرمد تقطين ٣٥٦ سم، وإوسع مسامات عرضها ٣١١ سم. مدون عليها شهادة  
لأنه إلا الله.

جدير بنا أن نهيء بادی ذی بدء الأستاذ الدكتور هاينتس لوشی Prof. Dr. Heinz Luschey مدير معهد الآثار الألماني بطهران على إعادة إصدار «نشرة الآثار من إيران» Archäologische Mitteilungen aus Iran، تلك الحولية العظيمة الشأن التي كان يشرف على إصدارها «إرنست هرتسفلد» Ernst Herzfeld. ويمكن الحصول عليها حاليا بعد أن أعادت طبعتها دار النشر التي كانت تصدرها.

يمتد الحجلد الأول منها على طائفة من المساهمات المتباينة الحجم، وهي تعالج بالدرجة الأولى إيران في عهدها الجاهلي. أما الحجلد الثاني فيركز دراساته على إيران في عهدها الإسلامي. وإن لكلي الحجلدين شأن ثقافي وتثقيفي رفيع. وفي كل حجلد من مجلدات هذه الحولية قسم كبير مخصص للصور يأتي في أعقاب نصوص الكتاب التي لا تخلو من ذلك من التصاویر والرسم التوضيحية، بل أنها تقص بها. ونلمس في تلك الرسوم دقة فائقة تشير إلى ما يتمتع به معهد الآثار الألماني بطهران من تراث عريق في هذا المجال.

وتعد المساهمة الأولى التي بقلم ر. جيرشمان R. Ghirshman: «إلهة عريانة لإلامية» (1) Déesse nue élamite بمثابة تحية لهذا العمل الجديد. ونجد في الدراسة التي عنوانها «إيران والغرب من قيروس حتى خسرو» بقلم هاينتس لوشی Heinz Luschey عرضا تاريخيا فكريا متكاملا لا يتخلو من ثراوت جديدة. ثم يعقبه عرض لوما وصل إليه البحث العلمي في الزردشتية، وقد حرره عالم الوثنيات السويدي ه. س. نيربرج H. S. Nyberg. ومن بين الدراسات الأخرى: «صياغة المكان في الفن الإيراني واليوناني المبكر» (كارل شيفولد Karl Scheffold)، و«نشأة الكتابة المسبارية الفارسية القديمة» (فانتر هينتز Walter Hinz)، و«أبواب القصور والقبور الأخامية» (فريدريش كريفتر Friedrich Krefter)، و«مسجد مير بزرگ في آمل» و«رموس العواميد السامانية في فيندبني Venderni» (كلاما بقلم فولفرام كلايس Wolfram Kleis)، و«كتابات مشكين شهر السامانية المحفورة في آذربيجان» (جرود جروپ Gerd Gropp)، و«معبد النار في لنگه رود» (ليو ترؤپلمان Leo Trümpelmann). أما هاينتس لوشی Heinz Luschey فنجد بقلمه المساهمات التالية: «دراسات حول الثاني بصورة في داربوش بيستون»، وبحث مستفيض عن «أسد إكباتانا» (مع ملحق: ومصادر القرون الوسطى العربية فيها تتعلق بأسد همذان - إكباتانا» بقلم كل من نجما بادی وج. جروپ G. Gropp)، و«تاريخ رموس الأعمدة السامانية التي في بيستون والبحث عن تاريخ الأثر القديم (المدعو) طاق بستان».

ويستل الحجلد الثاني «بعض رحلتين استكشافيتين في شمال غرب إيران» بقلم فولفرام كلايس Wolfram Kleis. ويشغل هذا العرض حوالي ثلث حجم الكتاب. وهو لا يغفل العارة الإسلامية كذلك. وينطبق هنا على الرسوم التوضيحية ما سبق أن قرأناها به. ولا يقل عن تلك الدراسة إتقاناً ذلك المقال الذي نشرته في هذا الحجلد «إنجبورج لوشی-شمايسر» Ingeborg Luschey-Schmeisser. ويلاحظ هنا أيضا روعة الصور المرفقة بالمقال، وهو ما يؤيد أن الدراسة العلمية لا تستبعد القيم الجمالية. ويستكمل هذه المساهمة نقل إحدى قصائد حافظ الشيرازي التي على جدار إحدى قصور الصفويين إلى الحروف اللاتينية مع التعليق عليها بقلم كل من «جرود جروپ» Gerd Gropp وسيف الدين نجما بادی. وفي مقال آخر يستعرض «فانتر هينتز» Walter Hinz «العناصر الفارسية في أسطورة يارتسيفال الألامية». ويعالج هذا الحجلد بالمثل من الموضوعات ما هو غير إسلامي مثل «بيرميوسيلس» (1) (تحت جمشيد) (فريدريش كريفتر Friedrich Krefter)، و«محفورات خطية ترجع إلى «كتابات بلغة أورارت» (2) في إيران» (يوهانس فريدريش Johannes Friedrich)، و«منهج لآناهيت» (وهي زهرة) (يقلم ليو ترؤپلمان Leo Trümpelmann وألكساندر ديمانت Alexander Demandt).

وإننا لنأمل لهذا العمل المتبحر أن يستمر وأن يعطى ثماره النافعة أطول مدة ممكنة ..

Arne A. Ambros, Einführung in die moderne arabische Schriftsprache. Max Hueber Verlag, München, 1969.

يشعر القارئ من الوهلة الأولى أن هذا الكتاب صادر عن تجارب عملية وأنه مؤلف من أجل الإفادة العملية. والواقع أن المؤلف قد جمع خبراته التي وضعها في كتابه هذا من عمله مدرسا للغة العربية في أكاديمية الشرق المحلقة بجامعة هامر

(1) نسبة إلى دولة «الإلام» Elam التي قامت بين الألف الثالث والقرن السابع قبل الميلاد. وحارب أهلها البابليين. (الترجم)

(2) عاصمة مملكة فانيق التي غرقت في عام 431 قبل الميلاد. (الترجم).

(3) وهي لغة قديمة عثر على بقاياها في شرق الأناضول (الترجم)

بورجستال بشيئا. ويهتم هذا الكتاب في المقام الأول بتلقين الكتابة العربية الحديثة لقراء الألمانية. وهو يستهدف تمكين الطالب الغربي من كتابة العربية ونطقها والتعبير عن نفسه بها، لا الاقتصار على قراءة نصوصها الأدبية والفقهية المتخصصة. من أجل ذلك فقد اقتصرت هذا الكتاب على عرض الضروري فقط من النحو العربي حتى لا يشطط همه التعلم الغربي عن متابعة الدرس. ومن الأساليب التربوية الناجحة المستخدمة في هذا الفن الاستغناء عن علامات الاعراب. بينما راعى المؤلف في معجم الألفاظ العربية تلبية حاجات الحياة اليومية إلى جانب ما تتطلبه المهنة الجامعية. ولإن كان المؤلف يؤكد على أن الغرض من كتابه تعلم العربية بدون معلم، فإن الغربي لا يستطيع أن يتعلم به وحده اللغة العربية! ومع هذا فإن القدرة على التعلم الذاتي لغة الضاد ترتفع بدرجة ملحوظة بفضل هذا الكتاب. ويوجد لهذا الغرض أسطوانات خاصة لتلقين النطق إلى جانب النصوص المطبوعة. وإن دار نشر هوبير Hueber-Verlag تستحق الشكر والتناء على هذا الكتاب ذي العرض المنسق المفيد.

*Ulrich Braukämper, Der Einfluss des Islam auf die Geschichte und Kulturentwicklung Adamaus. Abriss eines afrikanischen Kulturwandels. Franz Steiner Verlag, Wiesbaden, 1970.*

لقد أخذ عالم ألماني شاب تخصص في دراسة الأفريقيات على عاتقه دراسة أثر الإسلام في منطقة «آداما» Adama. التي صارت الآن موزعة بين الكاميرون، ونيجيريا، وجزء صغير من تشاد. ورغم أن حجم هذا الكتاب متواضع نسبيا (223 صفحة) إلا أنه في غاية اللسامة يستأهل اهتمام علماء الجماعات البشرية، والمؤرخين، والباحثين في الاسلاميات. وقد ابتدأ «براوكيمبر» Braukämper بتعريف الجبال الحيوى والخصائص الاثنولوجية للجماعات المعنية، ثم تطرق إلى تتبع انتشار الاسلام في «آداما» متندا في ذلك على نتائج الحفريات والأخبار المتواردة في أسفار التاريخ الأوربي والعربي المتضادم والحديث، ثم على الروايات الشفهية المتواردة التي لا زالت شائعة حتى الآن في تلك البقعة الأفريقية. ولقد وفد الاسلام إلى مراحل عدة إلى هذه المنطقة العديدة الأقوام محمولا على ربابات بحاري قبيلة «الوفول» Ful القادمين من الشمال، ومع تجار وصناع منطقة «هاوسا» Hausa وبحيرة تشاد. ويبحث المؤلف بالتفصيل انتشار الاسلام في القبائل التي تسكن الجبال، والمرتفعات، والسهول. ويتعمق القسم الكبير الثالث من الكتاب دور الاسلام في تطوير حضارة «آداما»، مع الاشارة إلى أهمية الجوامع المهدية التي تؤمن بالمهدي المنتظر. ثم يتعرض الباحث لدى تغفل الاسلام في الحياة الاجتماعية وبنية المجتمع، وإلى أي حد تأثرت بالحياة الاقتصادية كسالة تربية الأغنام مثلا. ومن المهم كذلك الوقوف على آثار الاسلام في الحضارة المادية لذلك المجتمع باعتباره رمزا لمن هم أرقى اجتماعيا. ثم يتعرض المؤلف في نهاية المطاف لدور الاسلام في الحاضر، وإلى أي حد يبلغ اهتمامه بالحياة الأوربية العصرية وبالمسيحية، وأي المواقف تنبع عن ذلك الاهتمام. ويتضح من تلخيص العوامل التي عاينت على انتشار الاسلام وتلك التي حاولت عرقلة غايته رجحان الأولى على الثانية بدرجة كبيرة. ويستكمل الصورة العرضي لتاريخ «آداما» Adama ابتداء من تسلل بلو قبائل «الوفول» الرجل من الشمال والغرب في القرن السادس عشر حتى تأثير القاهرة الذي اشتد في الخمسينات، واستقلال الكمرن، ونيجيريا. وإن نشر تلخيص باللغة الانجليزية لهذه الدراسة الوافية لأمر يدعو إلى الاصحاب مثلا تدعوا إليه قائمة المراجع الوافرة التي استعان بها الكاتب. وإننا نأمل أن نرى في المستقبل مزيدا من دراسات المؤلف عن الاسلام في أفريقيا وصلته المتشعبة بالحضارة الأفريقية.

*Bibliographie der Afghanistan-Literatur, 1945—1967. Teil I: Literatur in europäischen Sprachen. Teil II: Literatur in orientalischen Sprachen und Ergänzungen in europäischen Sprachen. Arbeitsgemeinschaft Afghanistan und Deutsches Orient-Institut (Deutsche Orient-Stiftung) in Zusammenarbeit mit der Dokumentationsstelle für den modernen Orient beim Deutschen Orient-Institut Hamburg und dem Institut für Entwicklungsforschung und Entwicklungspolitik der Ruhr-Universität, Bochum. Hamburg, 1968 und 1969.*

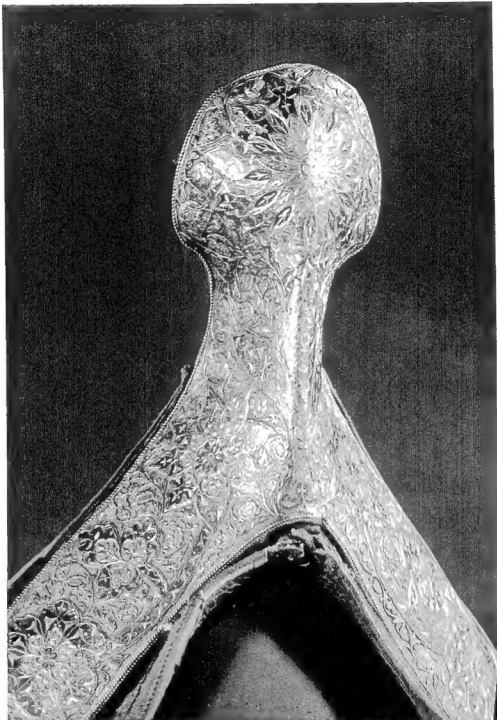
*Deutsches Orient-Institut (Deutsche Orient-Stiftung): Bibliographie zum Erziehungs- und Bildungswesen in den Ländern des muslimischen Orients. Wolfgang Ule, Bibliographie zu Fragen des arabischen Sozialismus, des Nationalismus und des Kommunismus unter dem Gesichtspunkt des Islams.*

*Dokumentationsstelle für den modernen Orient beim Deutschen Orient-Institut, Hamburg, März 1967 und Juli 1967.*

إن وضع الجيوبوغرافيا التي بين أيدينا لعمل جصور. ولقد وعى ذلك حق الوعي المخرران المستنلان عن المواد المجمعة عن أفغانستان: الدكتور أ. أ. مرسشميت Dr. E. A. Messerschmidt من معهد الشرق الألماني، والأستاذ الدكتور فيل







► درع تركي مستدير، أواخر القرن السابع عشر. يبلغ قطرها ٩ سم. جدلت من فروع التين المنطاة بخيوط حرير حراء، وقد أدخلت فيها زينات وخطوط من الشربة فضية دقيقة.  
صندوق يحتوي على آلات الكتابة، تركيا، القرن السابع عشر.  
نشكر متحف Badisches Landesmuseum Karlsruhe لتصريحه لنا بنشر صور هذه اللوحات من كتابالوج «غنية الأتراك» تأليف أرنست هيراش.

كراوس Prof. Dr. Willy Kraus من حلقة الدراسات الأفغانية. فقد كانا على علم تام بمجدود علمهما في هذا المضمار، وهو ما عبرا عنه في مقدمة البليوغرافيا.

وإن هناك ما يدعونا إلى البتة على هذا العمل. كما أن الجزئين التاليين عليه يتميزان بوضوح التوبير ورسالة التجميع. وهما لا يتضمنان مجرد عرض بليوغرافي للميادين الهامة، وإنما يقوما كذلك بتوجيهنا إلى أخطر وأهم الدوريات المتعلقة بأفغانستان. وإننا لنأمل مواصلة إصدار هذه البليوغرافيا.

ونجد من الناحية الأخرى كلا مجموعتي البليوغرافيا المتعلقة بميادين متخصصة لها أهميتها. وإن ذلك لينطبق بصورة خاصة على البليوغرافيا التي وضعها فولفجانج أوله Wolfgang Ule، فهي تعد بمثابة كنز من البيانات المفيدة لكل مهتم بالموقف السياسي في العالم الإسلامي. كما أنها مزودة بقائمة المجلات النافعة في هذا المجال.

Cyrus Atabay, *Doppelte Wahrheit. Gedichte und Prosa. Claassen Poetica*. Claassen Verlag, Hamburg und Düsseldorf, 1969.

ولد الشاعر «سبوس أطاباي» في طهران، ونشأ في ألمانيا وسويسرا، وما لبث أن صارت له مكانة مرموقة في الشعر الألماني المعاصر بفضل ما نشره من دواوين عدة. وهو متمكن من وسائل التعبير في الشعر الألماني الحديث ولكنه يعدل في استخدامها ويتجنب - على سبيل المثال - التجارب القوية. وإن هذا هو ما يجعلنا نختار في وضع الشاعر في أي الاتجاهات. وليس ذلك من علامات ضعفه بل من سمات قوته وارتفاع مستواه.

إن مجموعة القصائد التي يضمها هذا الديوان بين دفتيه ليست إلا يوبيات شعرية دون فيها المؤلف ما لاحظناه وأهم له. وإن الطابع الشرقي ليضيق على هذا الديوان ألعية خاصة، رغم أنه - أي هذا الطابع - ليس فاقم الألوان ولا زائد أعلى الحد. وقد استل «أطاباي» كثيرا من قصائده بمقتطفات من أعمال كبار الشعراء، مثل: «ضائع من لا يستطيع أن يأتي الآن بأعنان صمرية» (لودفيج هول)، أو تلك العبارة التي يهتر لها الوجدان: «دعنا نعلم الحياة مرة أخرى بصوت هادي» (زيبيل زاكس). إن ما يعجبنا في أكثر قصائد هذا الديوان أنها هادئة ليس فيها أدنى تلاعب ولا بلحاجة، ونفس الشيء ينطبق على المنشورات التي تحمل في الكتاب عنوان «أين الكلمات».

ونأتي هنا بترجمة عربية للقصيدة التي عنوانها «حقيقة مزدوجة»، وهو عنوان الديوان في نفس الوقت، حتى تكون خير مثال على ما نعتيه:

أسير	لأجل الحقيقة المزدوجة:	ومن التأرجح
وما أسير	هذه التي أنتنى إليها	فوق هذه وتلك الأرض.
أبعد من خطي آريل*.	وتلك التي لا مفر منها.	
سطح هجوي	آه من عدم إمكان العودة	(*) الفصح في مسرحية «الباصفة» لشكسبير.

Werner Klaus Ruf, *Der Burgaibismus und die Aussenpolitik des unabhängigen Tunesien. Freiburger Studien zu Politik und Gesellschaft überseeischer Länder*. Bertelsmann Universitätsverlag, Gütersloh, 1969.

يثبت هذا الكتاب أن علم الاجتماع الألماني قد سد الثغرة التي كانت كائنة فيه أثناء سلطة النازي، وذلك بفضل الجبل الجديد من الباحثين في هذا العلم. وقد أسهم في هذا المجال خير إسهام معهد «برجسترايسر» Bergstraesser-Institut التابع لجامعة فرايبورج Freiburg im Breisgau. وإن هذه الدراسة التي بين أيدينا من إنتاج ذلك المعهد. فقد أصبحت تؤنس موضوعا جديرا بالبحث والاهتمام وذلك لاستقلالها الميكرو وثبات سياستها الخارجية بفضل رئيسها الحبيب أبي رقيه. وإن هذه السياسة الخارجية لتفصح، أكثر منه بالنسبة للأقطار النامية الأخرى، عن تصورات زعيم الدولة ورئيسها.

وقد زد هذا البحث يملحن مهيب يحتوي على عدد كبير من المراجع والسجلات النافعة.

ترجمة: مجدي يوسف

دار الكتب المحلية بشتوتجارت، تصوير Hans Peter Feddersen (شتوتجارت)



